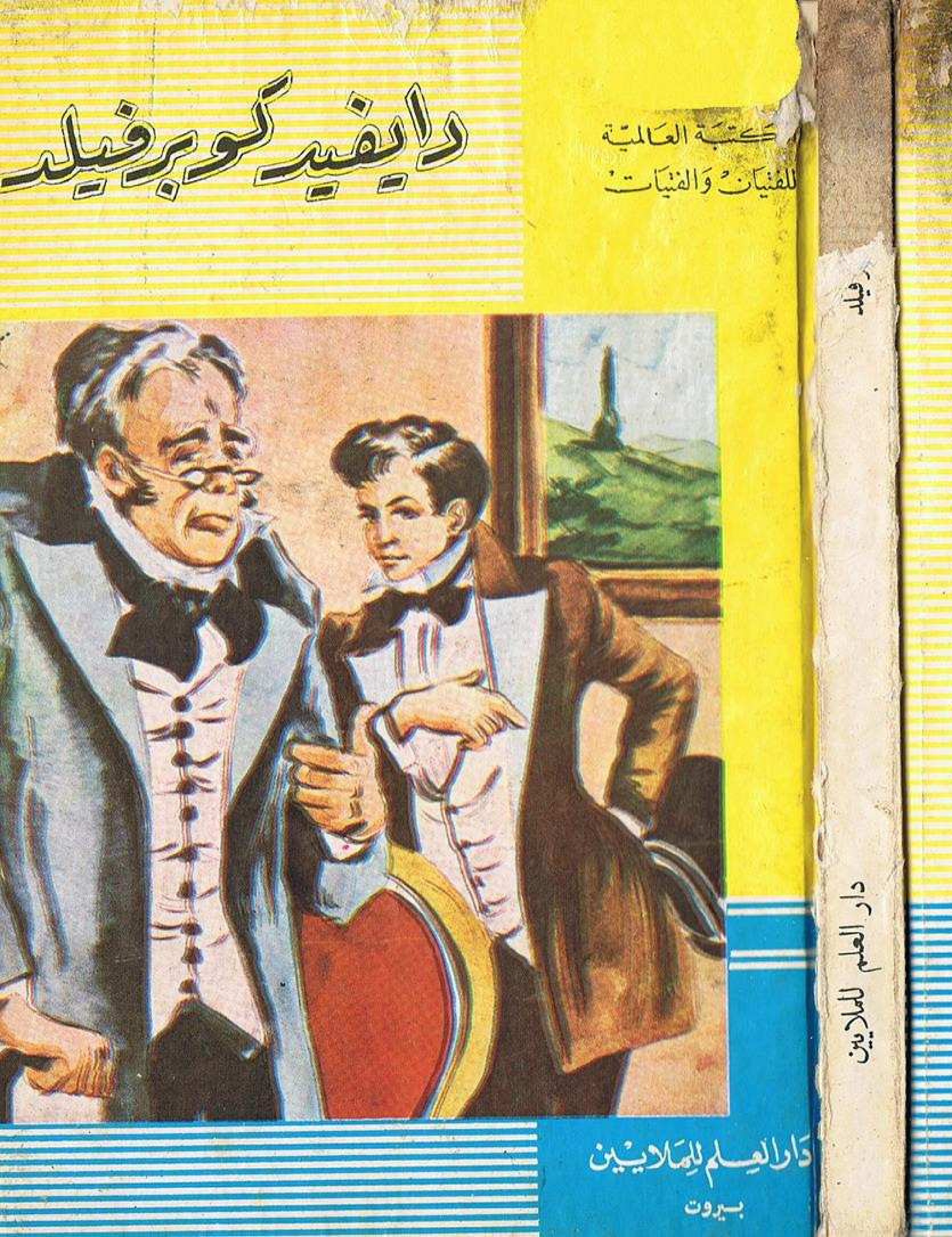


هذه الرواية

- قصة من شوامخ الأدب الانساني ، تهافت عليها المترجمون فنقلوها الى لغاتهم في شتى بقاع الارض .
- انهـا قصة اليتيم المقهور يتحكم فيه زوج امه الطيبة والضعيفة ، وشقيقة ذلك الزوج العانس .
- ولهذا اليتيم عمة ارستقراطية متعجرفة وشـاذة في معظم تصرفاتها ، وان تكشفت عن سريرة طيبة فيما بعد .
- ويحب دايفيد كوبرفيلد ، ويتألم ، ويذوق قسـاوة المدرسة ، واحتيال اصدقاء اللسان ، ولكن الحـق ينتصر أخيراً ، ويبلـغ دايفيد النجاح الذي ناضل في سبيله .

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

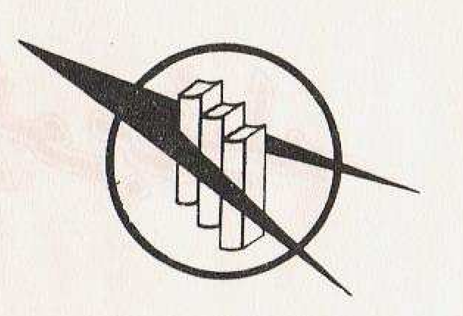


تأليف
تشارلز ديكنز

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٢٧٠ - ٢٩١٠٢٧

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٢

الطبعة العاشرة
كانون الثاني / يناير ١٩٩٠

١ . قصة مولدي

وُلِدْتُ في بلدة بَلَنْدَرْستون ، بكونتيّة سوفولك . وكان ذلك في يوم جُمُعة .

عندما فتحتُ عينيّ على هذا العالَم كان والدي قد أغمَضَ عَنْهُ عَيْنَيْه مُنْذُ ستّة أشهر ، فأصبحَتِ الآنسةُ بِتْسي تْرُوتْوُوْد ، عَمَّةُ والدي ، أكبرَ شخصٍ في الأسرة ، وكانت تقيمُ في قرية بعيدة ، على شاطىء البحر ، مع خادِمَتِها التي اكتفتْ بصُحْبَتِها عن صُحْبَةِ الناس .

كانت العَمَّةُ بِتْسي تُحِبُّ والدي كثيراً ، على ما أعتقِدُ ؛ ولكنها لم تَغْفِرْ لَهُ قَطُّ زَوَاجَهُ بوالدتي ، بحجَّة أن والدتي مُجَرَّدُ « طفلة » . والواقعُ أن سِنَّ والدتي كانت ضِعفَ سِنِّ والدتي .. ثم إنَّ صِحَّتَهُ لم تكُنْ على ما يُرام ؛ فلم يَعِشْ بعد زَواجِهِ سوى عامٍ واحد .

هكذا كانتِ الأوضاعُ في صَبيحة ذلكَ اليومِ المشهود : يومِ مولدي . قَبْلَ عِدَّةِ ساعاتٍ من مجيئي إلى هذا العالم

رأتْ والدتي امرأةً ، لا تعرِفها ، تَدْخُلُ الحديقة .
ولكنْ لم تمرَّ لحظاتٌ حتى عرَفتْ أنها لا بُدَّ أن تكون
مِس بتْسي ، والسببُ في ذلك أنَّ المرأةَ كانت تسيرُ بخطىً
ثابتةٍ واثقةٍ أكثرَ مما ينبغي . وهناك سببٌ آخرُ قدَّمتْه
الزائرةُ بنفسها لدى قدومِها .. وكانَ والدي قد أخبرَ
والدتي أنَّ عمتَه لا تتّبعُ في سلوكها الطُّرُقَ المألوفة ..
فعندما وصلتْ هذه الزائرة لم تقرَعِ الباب ، بل جاءتْ
إلى النافذة وألصقتْ أنفها بالزُّجاج حتى بدا منْبَسِطاً .
وكانتْ أمي صغيرةً ساذَجةً ، فما إن رأت هذا المشهدَ
حتى هرَبَتْ إلى زاويةِ الغرفة واختبأتْ وراءَ أحدِ المقاعد .
وبعْدَ أن جالتِ الآنسة بتْسي بنظرِها جميعَ أنحاء الحجرة ،
أبصرَتْ والدتي فأشارَتْ إليها ، على طريقةِ من تعوَّدَ إصدار
الأوامر ، بأن تفتحَ الباب ، فأطاعتْ . قالت :

— « أظنُّ أنكِ مسز دايفيد كوبرفيلد ؟ »

فأجابت أمي بضعف : « نعم ! »

— « اني أنا الآنسة ترُوتْوُود .. ولا شكَّ أنكِ سمعتِ
بهــا . »

وقالت والدتي إنَّه سبَقَ لها أنْ حظِيتْ بتلكَ السعادةِ ؛
فأضافتْ مس بتْسي :

— « ها أنتِ ترَيْنَها الآنَ أمامَكِ ! »

ثم جلستا صامتَتَيْن . وحاولتْ أمي أن تُسيْطِرَ على
نفسِها ، ولكنَّ أعصابهــا خانتْها آخرَ الأمرِ وانفجرتْ
بالبكاء . قالت مس بتْسي :

— « دعي البكاء ، وتعالَيْ هنا .. إنزَعي قبعتَكِ لأرى
وَجْهَكِ جيداً ! »

كان الخوفُ مستولياً على والدتي المسكينةِ ، فلم تجِدْ
بُدّاً من الامتثالِ ؛ ولكنَّ يدَيْها كانتا ترتجفانِ ففكَّتْ
شعْرَها الطويلَ ، وهي تنزِعُ القبّعة . قالت الآنسة بتسي :

— « يا إلهي ! إنكِ لستِ سوى طفلة ! »

وأجابت أمي ، بين الدموع ، بأنَّ هذا بالضبط مــا
يُخيفها : أن تكون طفلةً وأرملةً وأمّاً في نفسِ الوقت .
وسادَ الصمت ؛ وكانتِ الآنسةُ بتسي تجلسُ أمامَ النــار
عابسة . ثم رفعتْ رأسَها فجأةً وقالت :

— « بالطبع ستلدين ابنةً .. ليس عندي شكٌّ في ذلك .. هذا
شعوري .. واذنْ ، يا صغيرتي ، فمنذُ أن تُولَدَ هــذه
البنت ... »

وتجرّأَت أمي وأضافتْ : « ... أو هذا الصبيّ ! ... »

— « قلتُ لكِ إن شعوري هكذا ، فأرجو أن لا تعارضيني !
أقول من يومِ أن تأتيَ البنتُ سأكونُ صديقةً لها .. في نيتي
أن أكونَ عرّابتَها ، ورجائي أن تُطلِقي عليها اسمَ بتْسي

تروتوود كوبرفيلد ! »

وبَعْدَ لحظة سألتْها :

– « هَلْ كان دايفيد طيِّباً معكِ ؟ »

– « لقد كنَّا سعيدَيْن معاً !.. كان السيد كوبرفيلد بالغَ العطفِ عليَّ ! »

– « كنتِ يتيمةً ، أليس كذلك ؟ »

– « بـلى ! »

– « وكنتِ تعملينَ كمربية ؟ »

– « بل مساعدةَ مربيةٍ في منزلٍ كان يتردد عليه السيدُ كوبرفيلد .. كان لطيفاً معي ؛ ثم عرَضَ عليَّ أن يقترنَ بي فقبلْتُ ! »

– « كانت وارداتُ دايفيد محدودةً ، فهل خصَّكِ بشيء ؟ »

– « نعم ، بخمسمئةِ جنيه استرليني في العام ! »

وبدأت آلامُ المخاض تشتدُّ على والدتي ، فانسحبَتْ إلى حجرتها . وبَعْدَ بضعِ ساعاتٍ دخل الدكتور تْشيليِّبْ على عمّتي ، فابتدرَتْهُ قائلةً :

– « كيفَ حالُها ؟ »

– « ستكونُ عمّا قريبٍ على أحسنِ حال.. في استطاعتكِ أن تدْخلي وترَيْها ! »

– « و « هي » .. كيفَ هي ؟ »

فلوى الطبيبُ عُنُقَهُ جانباً ونظرَ إلى عمّتي فصاحت :

– « الطفلة ؟.. كيف حالها ؟ »

قال الدكتور تْشيليِّب :

– « كنتُ أحسبُ ، يا سيدتي ، أنكِ تعرفينَ أنّ المولودَ طفلٌ لا طفلة ! »

كانت عمّتي تَقِفُ معقودةَ الذراعين وقد حمَلَتْ قبّعتَها من رباطها بيدِها اليسرى . فلما سمعتِ الخبر لم تَفُهْ بكلمة ، ولكنها ضربت الطبيب بالقبّعة ، ثم وضعتها هكذا مشوّهةَ الشكلِ على رأسِها ، وخرجت من المنزل نهائيـاً .

٢. ذكرياتي الأولى

أوّلُ الذكريات الواضحة في مخيّلتي عن طفولتي الأولى تبدو فيها صورةُ أمي بشعْرِها الجميل وشكلها الطفولي ، ثم صورة خادمتنا « بيغوتّي » ، التي كانت عيناها ، من شدة سوادهما ، تُلْقيان ظلاً قاتماً على كل وجهك . وكان لهـا خدّانِ وذراعانِ في غاية الاكتنازِ والحمرة . وأذكرُ أولَ ما أذكرُ كيف كانت والدتي و « بيغوتي » تُقَرْفصان ،

الواحدةُ مقابلَ الأخرى ، وأنا أذهبُ من واحدة إلى واحدة مترنحاً متعثراً في خطاي الأولى .

أما الصُّوَرُ التي تتَّسمُ بالوضوح التام ففي مقدمتها منزلُنا .. إنه في الطبقةِ الأرضية . مطبخُ بيغوتي يُفتح على باحةٍ ينتصبُ في وسطها عمودٌ في رأسه بيوتٌ للحمام ولكنها خالية ؛ وفي ركنٍ منها بيتُ كلبٍ ، لا أثرَ للكلابِ فيه . ثم هناك عددٌ من الفراريج التي كانت تَبْدو لي ضخمةً ومخيفةً . وكان بينها ديكٌ يقفزُ إلى مكانٍ مرتفعٍ ، ليتأملني وأنا أُطلُّ برأسي من شُبّاك المطبخ . وكنت أرتجفُ لمرآه .

ويصلُ المطبخَ بالمدخلِ ممرٌّ طويل . وفي المنزل حجرتان للاستقبال ؛ الحجرةُ الأولى نجلسُ فيها نحنُ الثلاثة كلَّ مساء ، والحجرةُ الثانية لا ندخلُها إلا يومَ الأحد .. إنها أجملُ من الأولى ولكنَّها لا تُريحُ مثلَها .

ذاتَ مساءٍ كنتُ أنا و « بيغوتي » وحْدَنا في حجرة الاستقبال . كنتُ أقرأ لها قصةً عن التماسيح ، في انتظارِ والدتي ، التي كانت ، كما قيلَ لي ، مَدْعُوَّةً الى العشاء عند إحدى الجارات . وفهِمَتْ بيغوتي أنَّ الحديثَ يدورُ ، لا عن التماسيحِ ، بل عن نَوْعٍ من الخُضَر . ولستُ أدري إن كانَ السببُ في ذلك خطأً في لفظي لكلمة « تماسيح » أو أن المسكينة كانت شاردةَ الذهن ؛ فقد استعادتني القصةَ ،

لأنها رأتني أكادُ أسقطُ من النُّعاس ، ولكنني أرفض الذهابَ إلى سريري قبلَ أن أقبِّل والدتي .

وقُرِعَ بابُ الحديقةِ فجرَيْنا معاً لفتْحِهِ . كانت تلك والدتي ، التي بَدَتْ لي كأجملِ ما تكون . وكانَ يصحبُها رجلٌ لهُ شعرٌ أسودُ وعارضانِ جميلان . وكان هذا الرجلُ قد عادَ معَنا من الكنيسةِ يومَ الأحد ، الذي سبَقَ ذلكَ المساء .

ولامسَ الرجلُ خدّي مُلاطفاً ؛ ولكنني وجدْتُ في صوته وشخصِه شيئاً لا يُعجبني ؛ ولاأدري لذلكَ أيَّ سبب. وخاطبني وهو يُوَدِّعُ والدتي قائلاً :

— « قُلْ مساء الخير ، أيّها الصغير الجميل ! »

قلت : « مساء الخير ! »

— « تعال ، مُدَّ لي يدَك ، ولْنكُنْ صديقَيْنِ ! »

فمَدَدْتُ لهُ يدي ، فصافحَني بحرارةٍ ومضى . ورأيتُهُ يلتفتُ نحونا ، ويُلقي علينا نظرةَ وداعٍ من عيْنَيْه السوداوَيْن اللتَيْنِ تنطويانِ على شيء لا يُبَشّر بخير .

وعادَ معَنا مرَّةً أخرى من الكنيسة . وعلمتُ أنه يُدْعَى السيد مُرْدِسْتُون . ولاحظت أن بيغوتي لم تعُدْ تجلسُ معنا كثيراً في المساء ، وأن أمي أصبحت تعاملُها بكثير من المراعاة والتوقير . والشيءُ المهمُّ أننا لم نعُدْ

سُعَداء كما كنا في الماضي ، رغمَ أننا ظَلَلنا أصدقاء ، نحنُ الثلاثة .

وتعوَّدْتُ أن أرى الغريبَ ، ذا العارضَيْن الأسودَيْن ، في منزلِنا باستمرار . ولكنني ظَلَلْتُ أشعرُ نحوَهُ بالنُّفور . وهذا النفورُ ، الذي تولَّدَ في نفسي منذُ النظرةِ الأولى بصورةٍ غريزيّةٍ ، كان ناشئاً عن كوْنِنا ، أنا وبيغوتي غيْرَ محتاجَيْن إلى شخصٍ يُحِبّ والدتي .

قالت بيغوتي ، ونحنُ جالسانِ معاً ذاتَ مساء وأمي ، كعادَتِها ، خارجَ المنزل :

ـ « سيد دافي ، أتحبُّ أن تذهَبَ معي لقضاء أسبوعَيْن عند أخي في يارموث ؟.. سترى هنـاكَ البحرَ والسُّفُن والصيادين ، وتلعب على الشاطىء مع ابن أخي « سام » !

ولم تَقُلْ لي ذلكَ إلا بعدَ أن تردَّدَتْ كثيراً وحاولَتْ أن تفتحَ فاها ولم تنطِقْ بشيء .

قلت : « إن البرْنامَجَ يُعجبني ، ولكنْ هل توافقُ أمي على رحيلي ؟ »

فنظرتْ إليَّ بانتباه وقالت :

ـ « أراهنُ على جُنَيْه بأنَّها ستُوافق ! »

ـ « ولكنْ ماذا ستفعلُ في أثناء غيابِنا ؟.. إنها لا تستطيعُ أن تبقى وحيدةً هنا ! »



الآنسة تروتوود عمة دايفيد

١

قلتُ هذا وأنا أعتمدُ بمِرْفَقي على المِنْضَدَةِ ليكونَ لاعتراضي مزيدٌ من التأثير .

فصاحت بيغوتي :

– « ليحرُسْكَ المولى ! »

ثم أردفَتْ بعدَ لحظة ، تقول ، وهي باديةُ الضّيق :

– « إنها هي أيضاً ستقضي أسبوعَيْن عند السيدة غرايبر ! »

وجاء يَوْمُ الرَّحيل فركبْنا عربةً بطيئة ، ذاتَ حصانٍ كَسُول ، مَضَتْ تَقْطَعُ بنا طرقاً متعرِّجةً طويلةً حتى وَصَلْنا إلى يارموث . وصاحت بيغوتي :

– « هذا سام، ابن أخي ! لَكَمْ كَبِرَ ! .. إن المرءَ لايكاد يَعْرِفُهُ ! »

ورأيتُ فتىً طويلَ القامة ، متينَ البُنيان ، ولكنَّ له وجهَ طفلٍ بشَعْرِهِ الأشقرِ المجعَّدِ الذي يَجْعَلُهُ أشْبَهَ بالخروف . وأقبَلَ عليَّ الفتى يسألني عن صِحَّتي كأنَّه يَعْرِفني ، من زمنٍ بعيد . ثم حملني على ظهره ومَضَيْنا إلى المنزل .

وَصَلْنا إلى أرضٍ واسعةٍ خاليةٍ ، فصاح سام « ها هو بيتُنـا ! »

فنظرتُ في كلِّ ناحيةٍ فلم أرَ أيَّ بناء ؛ ولكني رأيت مركباً قديماً أسْوَدَ ، مقلوباً على الرمال ، تعلوه مِدخنَةٌ

من الصفيح يتصاعدُ منها الدُّخَان بهدوء . قلت :

– « أهوَ هذا الشيء الذي يُشبهُ السفينة ! »

– « إنه هوَ بالذات ، سيِّد دافي ! »

إذن سأسكنُ في سفينةٍ حقيقيةٍ ، سبَقَ لها أن خاضتِ البحارَ مئاتِ المرات ؟ إن هذا لَرَائعٌ حقاً ! .. لو نزلْتُ في قصرِ علاء الدينِ لما داخلَني مثلُ هذا السرور .

كلُّ شيء مرتَّبٌ ونظيفٌ داخل المركب – المنزل ؛ وقد صُفَّتْ فيه بعضُ الصناديق والأشياء المماثلة لتكونَ بمثابةِ مقاعدَ لأفراد الأسرةِ والزائرين . وكانت حُجرتي في مؤخَّرِ السفينةِ ، وهي أكملُ الحُجَر .

كانت في استقبالنا امرأةٌ لطيفةٌ تضعُ إزاراً أبيضَ وإلى جانبها بنتٌ صغيرةٌ رائعةٌ – رائعةٌ في نظري أنا .

وبينما كنا نتناولُ طعامَ العشاء دخلَ علينا رجلٌ طويلُ الشعر تبدو على وجهه الطِّيْبة . كان هذا هو السيد بيغوتي ، شقيق خادمتنا .

بعد احتساء الشاي ، أُغلِقَ بابُ المنزل ، وجلس السيد بيغوتي يدخِّن غليونَهُ ؛ فوجدتُ أنَّ الجوَّ مناسبٌ للحديث فقلتُ للسيد بيغوتي :

– « سيد بيغوتي ، هل سمَّيْتَ ابنَكَ «سام» لأنكم تسكنون في سفينة ؟ »

فوجد السيد بيغوتي فكرتي عميقة ؛ ولكنه قال :

— « لستُ أنا الذي أطلقتُ عليه هذا الاسم، بل والدُه! »

— « كنت أظن أنك أنتَ والدُهُ ! »

— « والده هو أخي جو ! »

— « هل مات ؟ »

— « مات غرقاً ! »

وعرَفْتُ أن املي الصغيرةَ هي ابنةُ اختِه وأن أباها غرقَ أيضاً . كما عرفتُ أن السيد بيغوتي عازبٌ ، وأن المرأةَ التي رَحَّبَتْ بمَقْدَمنا ليستْ زوجتَهُ ، بل زوجةَ بحارٍ كان شريكاً له في مركب ، وقد غرقَ دون أن يترك لها شيئاً ، فتولى أمرَها السيد بيغوتي الذي كان فقيراً ، ولكنه كريمُ النفس سخيّ اليد .

وذهبتِ المرأتان وأميلي ليَرْقُدْنَ في الناحيـة المقابلة لحجرتي ، في أسرَّةٍ صغيرة كسريري . أما السيد بيغوتي و«سام» فقد علّقا أرْجُوحَتَيْنِ بكلاليبَ في السقف ليناما فيهما .

في الصباح الباكرِ انطلقتُ نحو الشاطىء ، أنا وإميلي ، ورحنا نجمعُ ما نجدُهُ غريباً من الأصداف والحَصَى ، ونملأ به جيُوبنَا . ولما عُدْنا كانت خدودُنا شديدةَ الاحمرارِ من طُول ما جرَيْنا تحت أشعةِ الشمس .

ومضتِ المدّةُ دونَ أن أفكّر في والدتي . ولما جاء يومُ

الرحيل ذكرتُ أمي ، وشعرْتُ بشوقٍ عظيمٍ لها ، وشعرت أنْ ليس لي ملجأ سوى صدرِها الحنون . وكنت أثناء الطريق أشرحُ عواطفي بحماسةٍ بالغة ، منتظراً لحظة ارتمائي بين ذراعيَّ أمي . ولكنّ بيغوتي لم تكنْ تشاركني في هذهِ الحماسةِ ، بل كانتْ تخفّفُ من اندفاعي بكثيرٍ من الحنان والقلق .

وفتحت لنا بابَ المنزل خادمةٌ جديدة ؛ ولم تكن أمي في استقبالي كما كنتُ أتوقع . قلت لبيغوتي وقد استولى عليَّ الخوف :

— « ما هذا يا بيغوتي ! ألم تَعُدْ أمي ؟ »

— « بلى ، بلى ! »

— « إذن ماذا ؟ هل ماتَتْ هي الأخرى ؟ قولي ، هل ماتت ؟

فأدخلتْني إلى المطبخ ، ثم أغلقَتِ البابَ وقالت :

— « إسمعْ ، يا حبيبي ! كان عليَّ أن أخبرَكَ قبلَ الآن ، ولكني لم أجدْ فرصةً لذلك .. كلُّ ما في الأمرِ أنه أصبح لكَ والدٌ جديدٌ ! »

فاصفرَّ وجهي وبدأ جسدي يرتجف . قالت بيغوتي :

— « تعالَ لنراه ! »

قلت : « لا أريدُ أن أراه ! »

— « وأمك ؟ »



دايفيد وإميلي الصغيرة

فلم أقاومْ لأنني كنت أنتظرُ بفارغ الصبرِ أن أرى وجهَ أمي . فأخذَتْني من يدي ، وتوجَّهْنا إلى قاعة الاستقبالِ الكبيرةِ حيثُ تركَتْني ومَضَتْ .

كانتْ أمي جالسةً في جانبٍ من المدفأة وفي الجانب الآخرِ السيد مُرْدِسْتُون . وما إن رأتني حتى نهضتْ مسرعةً . فقال مُرْدِسْتون :

– « تذكَّري ما قلته لك، يا عزيزتي كلارا ... عليك أن تتمالكي نفسكِ باستمرار ؟.. دافي ، كيف أنت ، يا بنيّ ؟ »

فمددتُ له يدي ، ثم قبّلت أمي ، بَعْدَ تردُّد . فقبّلَتْني ووضعَتْ يَدَها على كتفي ، ثم عادت إلى حياكتها .

ولما صعدْتُ إلى غرفتي وجدْتُها قد تغيَّرَتْ ، ولم تَعُدْ لي .

٣ . وهكذا بدأت متاعبي...

لو كانتْ جدرانُ الحجرة التي نُقلتُ إليها تتكلم لأشهدتها على ما أجريْتُ من الدموع .

في الصباح أفقْتُ على صوت أمي وبيغوتي . كانت إحداهما تقولُ للأخرى :

« ها هو ! »

كنتُ منطوياً في طرَف السرير تحت الغطاء . ورفعتْ أمي الغطاء وجَسَّتْ رأسي الذي كان يلتهب .

ـ « دافي ! ولدي ! ما بك ، يا حبيبي ! »

ما بي ! يا لَهُ من سؤال ! أدرْتُ وجهي إلى الناحية الأخرى حتى لا ترى دموعي ، وقلت : « لا شيء ! » .

وشعرتُ بيدٍ ، مختلفة عن يد أمي أو بيغوتي ، تحاول أن تنتزعني . فانسحبتُ إلى أسفل السرير . كانت تلك يدَ السيد مردستون ، الذي أمسكَ ذراعي ، وقال لوالدتي :

ـ « ماذا يعني كلُّ هذا ، يا كلارا ؟ هل نسيْتِ ؟ قليلاً من الحزم ، يا عزيزتي ! »

فأجابت أمي :

ـ « أنا في غاية الضِّيْق ، يا ادوار ! لقد حاولتُ أن أكونَ متعقّلة ، ولكنني أشعرُ بألم عميق ! »

ـ « إنزلي ، يا حبيبتي ، وسألحقُ بكِ أنـا ودافي بعدَ لحظة ! »

ثم أغلقَ البابَ وراء أمي وبيغوتي ، وعاد ليجلسَ على كرسيّ قبالتي ، وراح يوجّه نحوي نظراً جامداً كأنه السّهام ، فلم أستطِـعْ أن أحوّل عينيَّ عن عينَيْه ؛ ويخيَّلُ إليَّ ، حتى هذهِ اللحظةِ ، أنني أسمع دقات قلبي . قال وهو يَزُمُّ شفتَيْه الدقيقتَيْن :

ـ « دافيد ! أتعرف ماذا أفعلُ عندما أريد أن أطوِّعَ حصاناً أو كلباً عنيداً ؟ »

قلت : « لا أعرف ! »

قال : « أضربُهُ إلى أن أُخضِعَهُ ، حتى ولو اضطُرِرْتُ إلى إسالة الدّمِ الذي في عروقِهِ ! .. ما هذا الذي أراهُ على خدَّيْك ؟ »

قلت : « وَحْل ! »

بالطبع كان يعرف ، كما كنت أعرف ، أن ما على خديَّ هو آثار الدموع .. ولكن حتى لو وجّه إليَّ نفسَ السؤال مئة مرةٍ لما حظيَ بغير هذا الجواب !

قال بابتسامتِهِ المظلمةِ ، التي عرفتُها قَبْلَ ذلك :

ـ « بالنسبة إلى ولد في سنِّكَ أرى أنَّ لديكَ كثيراً من الذكاء .. ولكنكَ فهمتَ ما أريد ! .. قُمِ اغسِلْ وَجْهَكَ وانْزِلْ معي ! »

كنتُ على يقينٍ أنني لو تردَّدْتُ لحظةً لتلقَّيْتُ ضرْباً مبرِّحاً .

ولما هبَطْنا إلى غرفةِ الاستقبالِ ، قال :

ـ « كلارا ، أيتها العزيزة ، أرجو ألا يعذِّبَكِ بَعْدَ الآن ! سنَعْرِفُ كيف نقوِّمُ هذا الطبع العنيد الصغير ! »

لو أن السيد مردستون قال لي في تلك اللحظة كلمةً واحدةً

فيها حنانٌ وتشجيعٌ لحملتُ له الاحترامَ مكانَ الاحتقارِ والحقدْ ! لو أنه قال لي إن منزلَ والدتي سيكونُ منزلي على الدوام ، ولن يتغيَّر شيء في حياتي ، لكان موقفي منهُ قد تغيَّر . ولكنَّهُ آثرَ الطاعةَ الكاذبةَ المرائية . لقد كانت أمي في غاية التعاسةِ ، تَشْهَدُ بذلك نظراتُها الحزينةُ التي كنتُ أحسُّ أنها تتبعني كيفما تحرَّكْتُ .

في المساء وصلتْ إلى المنزل مس مردستون شقيقة السيد مردستون . كانت الآنسةُ مردستون تشبهُ أخاها شبهاً غريباً ، سواء بشعرها الأسْوَدِ ووجهِها المُتَجَهِّمِ ، أم بتصرُّفاتها ومظهرِها المخيف .

ورغم أنَّ السيد مردستون لم يكن تاجراً بالمعنى الصحيح ، غير أنه كان يملكُ جزءاً من تجارة أحد تجار الخمور ، وكذلك أختُهُ الآنسة مردستون .

فهمتُ أن الآنسة مردستون ستقيم في المنزل بصورة نهائية . وقد أخذَتْ من والدتي مفاتيحَ المنزل ووضعَتْها في حقيبتها الفولاذية ؛ أما في أثناء الليل فكانت تخبئها تحتَ وِسادتها . ومنذ ذلك اليومِ ، لم يَعُدْ لأمي في المنزل من النفوذ أكثر ممّا لي .

وفي انتظار إرسالي إلى المدرسة الليليةِ بدأتُ أتلقى دروسي في المنزل . كانت أمي هي التي تُشْرِف على تعليمي ، من الناحية الشكلية وحَسْبُ . أما في الحقيقةِ فالذي كان يتولى

الإشراف الفعليَّ هو السيد مردستون وشقيقتهُ اللذان كانا يستغلاَّنِ هذه الفرصةَ لتلقين أمي دروساً في الحَزْم . وقد استولى عليَّ الشعورُ بأنَّ هذا هو سببُ استبقائي في المنزل .

في الماضي كنتُ أتعلَّم بسهولةٍ ولذَّة ؛ أمّا الآنَ فقد أصبح الدرسُ ، بالنسبةِ إليَّ ، بمثابةِ عملٍ شاقٍّ وحزْنٍ مُقيمْ . فبينما تكونُ أمي تستمعُ إليَّ ، يجلس السيد مردستون ليتابعَنا بسَمْعِهِ ، وهو يتظاهرُ بقراءة صحيفتِهِ ، أو تنوبُ عنه اختُهُ في ذلك . وأقفزُ عن كلمة وأنا أُسمِّعُ الدرسَ ، فيرفعُ السيد مردستون نظرَهُ ، فيحمرُّ وجهي وأقفز عن نصف دزّينةٍ من الكلمات فتقول أمي بهدوء : « أوه ، دافي ، دافي ! »

فيتدخلُ السيد مردستون قائلاً : « ما هذهِ الطريقةُ يا كلارا ؟ كوني حازمةً مع هذا الولد ! » . هذا لَعِبُ أطفال !.. إمّا أنه يعرِفُ درسَه ، أو لا يعرِفُهُ ! »

وتقولُ الآنسة مردستون بصوتٍ رهيب : « إنه لا يعرِفُهُ ! عليكِ أن تعيدي إليهِ الكتاب ليحفظَ الدرسَ من جديد ! »

وأعاودُ حفْظ الدرسِ ولكنني لا أنجح . إن المعلومات تتَبَخَّر من رأسي عند مرأى السيد مردستون وشقيقتهِ ؛ وتُطْبِق أمي الكتابَ ، وتترك لي الدرسَ لأعودَ إليه بعدَ

أن أكون قد فرَغْتُ من فروضي . ولكنَّ الدروسَ المتأخرةَ تتراكم ، وأجدُني وقد أصبحْتُ أشدَّ غباءً . وترقُّ أُمي لحالي ، فتهمسُ لي بكلمة .. ولكنَّ الآنسة مردستون متيقظةٌ لكل حركة .. وهذا صوتُها ينطلقُ مُحَذِّراً : « كلارا ! »
ويفقـدُ السيد مردستون صبرَهُ فيرشُقُني بالكتاب ، أو يَصْفَعُني على وَجْهي ويَطْرُدُني من الحجرة .

فاذا انتهيْتُ من حفظِ دروسي بقيَ أمامي أصعبُ الأشياء ، وهو جدول الضرب الذي كنت أعالجُهُ حتى وقت الغَداء ، حيث أُعْطَى كسرةَ خبزٍ يابس وأظلُّ مُعاقباً طولَ النهار . أما اللَّعِبُ مع الأطفالِ في مثلِ سِني فلم أكنْ أحظَى به إلا في النادرِ النادرِ ؛ لأنَّ السيد مردستون وشقيقتَهُ لا يَرَيانِ في الأطفال سوى مخلوقاتٍ أشبهَ بالأفاعي الصغيرة .

هذه الحالُ التي دامَتْ نحوَ ستةِ أشهرٍ ملأَتْ حيـاتي بالبؤس وجعلَتْني دائمَ التجهُّم . والذي أنقذَني من البلَهِ التام وجودُ مجموعةٍ من الكتب ، تركَها والدي في إحدى الغرف ، فلم يأبَهْ لها أحدٌ . فهي التي أبقَتْ خيالي متيقظاً منتعشاً .

وفي ذاتِ صباحٍ حملْتُ كتبي ونزلْتُ إلى حُجـرةِ الاستقبالِ كعادتي . فوجدْتُ أمي في حالةٍ شديدةٍ من القلق بينما كان السيد مردستون يربطُ شيئاً بطرف عصاهُ الخيزُرانية

وشقيقتُهُ تجلسُ وعليها سيماءُ الجِدِّ والتصميم . وكان يقول لوالدتي : « أؤكد لكِ أنني ، أنا نفسي ، تلقَّيْتُ الضربَ وأنا صغيرٌ !.. والآن ، يا دافي ، عليكَ أن تكونَ اليومَ أكثرَ انتباهاً من عادتك ! » قال هذا وراحَ يلوِّحُ بعصاه . وكان طبيعياً ، بمثلِ هذهِ البدايةِ الجذابةِ أن يطيرَ من رأسي مـا تمكَّنْتُ من استيعابه . وانخرطَتْ أمي في البكاء ، وصاحتِ الآنسة مردستون : « كلارا ! » . ونظرَ السيد مردستون إلى أختهِ وقال : « إننا لا ننتظرُ من كلارا أن تكون حازمةً !.. دافيد ، سنصعَدُ معاً إلى فوق ! »

ولما أصبحنا في حجرتي أخذ رأسي تحت ذراعهِ وراح يضربني بقَسْوةٍ ، وأنا أتخبَّطُ وأستجيرُ به . ولما لم يتوقف أطبقتُ بأسناني على اليدِ التي تحبِسُ رأسي وعَضَضْتُها بكلِّ ما فيَّ من قُوَّة . هنالكَ راحَ يضرِبني دونَ وَعْيٍ كأنَّهُ ينوي أن يقضي عليَّ . وقد سمعْتُ أمي وبيغوتي تبكيان وهمـا تصعدانِ السُّلَّم . ثم إن السيد مردستون أقفل عليَّ البـاب وتركني ملقى على الأرض .

وظللتُ مع تَباً في حجرتي خمسةَ أيام ، لم يسمح السيد مردستون وشقيقتُهُ خلالَها لأمي أن تقترب مني . وفي اليوم السادس جاءتني الآنسة مردستون لتقولَ لي إنني سأرحلُ إلى المدرسة الداخلية .

٤ . في المدرسة الداخلية

حَمَلَني السيد باركيس بعربته ليُوْصِلَني إلى المدرسة . ولم نقطعْ نصفَ ميلٍ حتى توقّف ؛ ورأيت بيغوتي تخرج من وراء سِياج وتصعَدُ إلى جانبي . راحت تحتضنني بحرارة ، دون َكلام . ثم أخرجتْ كمية ً من الحلوى خبّأتْها بين أمتعتي وناولتني كيساً ، وعادت تضمّني إلى صدرها بحنان ؛ ثم هبطتْ من العربةِ دون أن تنبس َ بكلمة واحدة .

بعدَ أن أفرغتُ كل ما في عينيَّ من الدموع ، قلتُ في نفسي إنَّ البكاء لا يُفيدني .. لِأتصرَّفْ مثلَ ذلك القائدِ البحريّ ، الذي قرأتُ عنه ، والذي لم تسقُطْ له دمعةٌ وهوَ في أقسَى المواقف .

وفتحتُ كيسَ النقودِ فوجَدْتُ ثلاثةَ شلنات ٍلمّاعة من بيغوتي ، ونصفَيْ جنيه في ورقة كتبتْ عليها أمي : « إلى دافي مع كل حناني » ! وكانت هذه الكلماتُ أعزَّ شيء عندي .

أوصلني السيد باركيس إلى يارموث التي غادَرْتُها في الثالثة بعد الظهر ، مستأنفاً سفري إلى لندن ، حيث وصلتُ في صباحِ اليوم ِالتالي .

لم يكنْ أحدٌ في انتظاري . فدخلت إلى مكتب شركةِ العرباتِ وانتظرْتُ من يأتي ليأخذَني ؛ ولكنْ مـرَّ وقتٌ طويلٌ دون أن يظهرَ أحد ، حتى بدأ يساوِرُني الشكُّ في أنَّ هذهِ قد تكونُ طريقةً لجأ إليها السيد مردستون ليتخلّصَ مني . وبينما كانت هذه الفكرة ، وغيرُها من الأفكـار السوداء ، تعذّبني وتثيرُ فيَّ القلَقَ والمخاوفَ جاء يطلبني شابٌ أصفرُ اللون ، غائرُ الخدَّيْنِ له ذقنٌ أشدُّ سواداً من مردستون ، وإذا سار ، سارَ مُخلَّعاً بسترته القصيرة وبنطالِه الذي لا يَصِلُ إلى كاحلَيْه .

قال بعد أن خرجنا :

– « أأنتَ التلميذُ الجديد ؟ »

قلت : « نعم يا سيدي ! »

– « أنا أحد المشرفين على المطالعة في مدرسة « سالم » الداخلية ! »

إذن أنا في حَضْرة أستاذِ عالمٍ من أساتــذة « سالم هاوس » ... يا لَخجَلي ! ركبنا عربة أنا والسيد « مَلّ » – وكان هذا اسمه – وتوجَّهْنا إلى المدرسة ، التي تبعد نحو ستة أميال عن تلك المحطة .

واستقبَلَنا رجلٌ بدينٌ عَبوسُ الوجهِ حَليقُ الرأسِ له ساقٌ خشبية وجبين بارز ورقبةٌ غليظةٌ كرقبةِ الثور .

قال السيد مَلّ :

– « هذا هو التلميذ الجديد ! »

فراحَ ذو الساقِ الخشبيةِ يفحصُني من قِمَّةِ رأسي إلى أسفل قدَمَيَّ ، مما لم يستغرقْ سوى لحظةٍ ، لأن المسافةَ بينهما لم تكن بالطويلة !

كانت المدرسةُ عبارةً عن بناء مكعَّبٍ على جانبَيْهِ جناحان صغيران ، وكان يحيطُ بها جميعاً سورٌ من الآجُرّ . والمكانُ خاوٍ موحشٌ يلفُّهُ صمتٌ مُطْبِقٌ . قلت للسيد ملّ وقد أدهشني هذا السكون :

– « لا بُدَّ أن التلاميذَ في النزهة ! »

قالَ متعجباً من عدم معرفتي حقيقةَ الوضع :

– « بل هم ما يزالون في العطلة الكبرى ! »

وفهِمْتُ آخرَ الأمرِ أنَّ موْعدَ فتح المدارسِ لم يَحِنْ بعدُ ، ولكنني أُرْسِلْتُ ، أنا ، الآن عقاباً لي على سوء سلوكي .

وقادَني إلى حُجرة المطالعة ، وتركَني هناك . إنَّها حجرةٌ طويلةٌ فيها ثلاثةُ صفوفٍ من مقاعد الدراسة ، وتَشيعُ في جوِّها رائحةٌ كريهةٌ هي مزيجٌ من الجلد العفِنِ والتفاحِ المخزونِ والكُتُبِ القديمةِ . أما أرضها فقد كان يكسوها الحبرُ ، كأنَّ البنائينَ قد تركوها زمناً دون سقْفٍ فجادت عليها السماءُ بأمطارٍ وثلوجٍ وبرَدٍ من الحبر .

وفجأةً رأيتُ على أحد الأدراج لافتةً من الورق المقوّى

كُتِبَ عليها بالحروف الكبيرة : « حذارِ ! إنَّهُ يَعَضّ ! » فصعدْتُ حالاً على الدَّرَج ظنّاً مني أنَّ هناكَ كلباً شرساً . ولكنني ، وقد نظرْتُ في كلِّ ناحية ، لم أرَ أثراً لأيِّ كلب . وفي تلك اللحظةِ عاد السيد ملّ وسألني لماذا أقفُ فوق الدَّرج فقلت :

– « لا تؤاخذني، يا سيدي!.. ولكنَّني أنظرُ أينَ يوجدُ الكلب ! »

– « كلب ! أيُّ كلب ؟ »

– « الكلب الذي يجبُ الحذرُ منه لأنّه يَعَضّ ! »

– « كلا ، يا كوبرفيلد ! ليس هذا كلباً ، بل ولدٌ صغير ! كوبرفيلد ، إن لديَّ أمراً بأن أعلّقَ هذه اللافتةَ على ظهرك .. إني لشديدُ الأسفِ لأننا نبدأ علاقتَنا على هذا النحو ، ولكني مضطرٌّ إلى ذلك ! »

ومن ثَمَّ أنزلني وعلّق لي اللافتةَ كجَعْبةِ السهام . وأصبحتُ منذ تلك اللحظة أروح وأغدو واللافتةُ على ظَهْري . وحتى عندما لم يكن قربي أيُّ أنسان ، كان يخيَّلُ إليَّ أنَّ هناكَ شخصاً يقرأُها . ولا تَسَلْ عن الهمّ الذي أورثَتْني إياهُ هذهِ اللافتة . والذي كان يضاعفُ مصيبتي أن ذا الرِّجلِ الخشبيةِ ما إن يراني مستنداً إلى حائط أو إلى شجرة ، حتى يصيحَ بي ، من حُجرتِهِ عند البوّابة بصوتٍ رهيب : « هيه

كوبرفيلد ! إكشِفْ عن اللافتة ، وإلاّ سَجَّلْتُ لكَ علامةً سيئة ! » فأتحرّك من مكاني لأكون أضحوكةَ الخَـدَمِ ومتعهِّدي التموين . وكانت فكرة عودة التلاميذِ تقلقُني أشدَّ القلق .

وذاتَ يومٍ أعلنَ لي السيد مَلّ أن المدير السيد كريكل سيعود في المساء . وبعد الشاي علمتُ أنَّهُ قَدْ وَصَل . وجاءني ذو الساق الخشبيةِ يُخْطِرُني بأنَّ عليَّ أن أمثُلَ بين يدَيْ المدير . وابتدرَني هذا ، عندما أصبحتُ أمامَه ، بقوله :

« إذن هذا هو الشابُّ الذي يجب أن تُبرَدَ أسنانُه ! أدِرْهُ حتى أرى ! »

فادارني ذو الساقِ الخشبية بحيث أصبحتِ اللافتةُ قبالةَ السيد كريكل الذي كان يبدو رهيباً بعينيهِ الصغيرتينِ الغائرتينِ وأنفهِ الدقيقِ وذقنهِ البالغةِ العَرْض ، والعروقِ الناتئةِ في جبينه . وأكثرُ ما أثَّرَ فيّ أن صوت السيد كريكل لم يكنْ يخرُجُ إلا بصعوبةٍ تامّة ، ويكادُ لا يُسْمع . ولدى أيِّ كلمة يتلفظ بها السيد كريكل يَحتقنُ وجهُهُ وتزدادُ عروقُهُ بروزاً ، ويتخذ وجهُهُ تعبيراً أكثرَ شراسةً وأحفلَ بالشرّ . قال :

« تعال هنا يا سيد ! » ثم أمسك أذني وراح يَشُدُّهـا ويهمس :

ـ « إنَّ لي شرفَ معرفةِ عمِّك .. إنهُ رجلٌ كريم .. رجلٌ هُمَام .. هو يَعْرِفني وأنا أعرِفُه ، فهل تعرِفني أنت ؟ »

قال هذا وهو يضغَطُ على أذني بتطرُّف وحشيّ . قلتُ بأنين :

ـ « لم أعرِفْكَ بعدُ يا سيدي ! »

ـ « لم تعرِفْني بعدُ ؟ هه ؟.. كلُّ آتٍ قريب .. أليس كذلك ؟ »

وردَّدَ ذو الساق الخشبيةِ بَعْدَه :

ـ « كلُّ آتٍ قريب ، أليس كذلك ؟ »

وعلمتُ فيما بعدُ أن ذا الساقِ الخشبيّةِ ، الذي يتمتّعُ بصوت جَهْوَرِيّ ، كان يقومُ بدَوْر المترجم للسيد كريكل .

وامتلأتْ نفسي رُعباً وأحسَسْتُ كأن ناراً تشتعلُ في أذني . وعندما أذِنَ آخرَ الأمر بأن يأخذَني ذو الساقِ من أمامِهِ ، تجرّأتُ ، ولا أدري كيفَ تجرأتُ ، على القول :

ـ « لو يأذنُ سيدي.. أنا آسفٌ على ما فعلْت.. لو يسمَحُ سيدي .. أن يرفَعَ عن ظهري هذه اللافتةَ قبلَ عـودة التلاميذ ! »

ولم أكَدْ أفوهُ بذلك حتى هَبَّ من مَقْعَدهِ كأنَّهُ يريدُ أن ينقَضَّ عليَّ ويَسْحقَني . فانطلقتُ كالسهم خارجَ الحجرة ، ولم أتوقَّفْ إلاّ في المنامةِ حيث اندسَسْتُ في سريري وظللْتُ أرتجفُ أكثرَ من ساعتَيْن .

في صباح اليومِ التالي عادَ السيد «شارْب»، وكيل السيد كريكل. ومن حسن حظي أن أولَ من وصلَ من التلاميذ تلميذٌ لطيف يدعى تومي ترادِلْز، وقد هوَّنَ عليَّ إلى حد بعيدٍ مُصيبةَ اللافتة. فقد أضحكتْه كثيراً؛ وكان كلَّما أتى تلميذٌ قال له: «تعالَ انظُرْ إلى هذه المَهْزَلَة!» كان التلاميذُ يستنكرونَ ما فعلَتْه بي المدرسةُ بَدَلَ أن يُرهقوني باحتقارِهم وابتعادِهم عني، كما كنت أتصور. على أن هذا لا ينفي أن بَعْضَ التلاميذِ كانوا يتَسلَّوْنَ بي ويقفزون حولي أو يُرَبِّتون على كتفي حتى لا أعضَّهم. ولم تهدأ ضجةُ اللافتةِ إلا بعد وصولِ تلميذ باسم ستيرفورث، يكبُرُني على الأقل بستّ سنوات، ويَحْظَى باحترام التلاميذ جميعاً، بوصفِهِ عالي الثقافة. أخذني التلاميذُ إليه ليكونَ بمثابة قاضٍ في هذه المسألة. ولما عرَفَ كلَّ دقائق هذا العقاب قال: «تلك غايةُ النذالة!»، وبذلك أسدَى إليَّ خدمةً لا تُنسَى.

بدأ العمل في اليوم التالي لأوّل العام الدراسي. وكان الاستهلالُ على هذا النحو: دخل علينا السيد كريكل بعد الفطور، فساد الصمتُ كأنَّ المكانَ خلا من التلاميذ، ومع ذلك صاح تنغسباي، ذو الساق الخشبية، الذي كانَ يقفُ بجانبه: «سُكوت!» وراحت شفتا السيد كريكل تتحركان وإذا به يقول: «أيها التلاميذ الفتيان! هذا فصلٌ جديد

يبد، فانتبهوا إلى ما ستعملونَ فيه.. أأنصحكم بأن تبذلوا النشاط التامَّ في الدرس، لأنني عائدٌ إليكم وكلّي نشاطٌ لمعاقبتكم! لن أضْعُف. ومهما فرَكْتُمْ مكانَ ضرَباتي فلن تتمكنوا من مَحْوِ آثارها! والآنَ إلى العمل!»

بعد هذا الخطاب البليغ، اقتربَ السيد كريكل مني وقال لي إنني إنْ كنتُ أعضُّ فهو مشهورٌ أيضاً بهذا الاختصاص. ثم رفع عصاهُ قائلاً: «ما قولُكَ بهذا السِّن، هه! أهذا ناب، هه؟ أم ضرس، هه؟ هل له رأس حاد، هه؟ هل يعض جيداً، هه؟ هل يعض جيداً، هه؟» ولدى كل سؤال كان يَهْبِطُ علَيَّ بعصاه، فأتلوّى من الألم.

على أنني أخطىء كثيراً إن كنتُ أصوِّر نفسي على أني كنتُ وحدي مَحَلَّ هذه العنايةِ. فالواقعُ أن السيد كريكل لم يكن يزورُ مرَّةً حُجرةَ الدرس إلا وتجدُ نصفَ التلاميذ، وخاصةً الصغار منهم، يتأوَّهون ويبكون.

ومع هذا فقد خدَمَتْني قسْوةُ السيد كريكل. ذلك أنه شعرَ أنَّ اللافتةَ تعُوقُهُ عندما كانَ يُريدُ أن يضربَني على ظهري، فأمرَ برفْعِها.

في مدرسةٍ كهذهِ تسوْدُ فيها تلك القسْوَةُ الوحشيةُ، لا يستطيعُ أحدٌ أن ينتظرَ من التلاميذِ تقدُّماً في الدراسة. لهذا كان معظمُ التلاميذِ لا يعْرِفون شيئاً. أما أنا فقد

استطعْتُ ، رغمَ العُقوبات المستمرَّة ، أنْ أحصلَ على بعضِ الثقافة بفضلِ اعتدادي بنفسي وبمساعدةِ ستيرفورث الذي كانَ يَضَعُني تحت حمايتِهِ . وقدْ ساعدَني السيد مَلّ أيضاً إلى حدٍّ بعيد .

وانتهى العامُ الدراسيّ ، الذي زارني خلالَهُ السيد بيغوتي و « سام » ، مَوْفَدَينِ من قِبَلِ مربّيتي بيغوتي . وأقبلتِ العطلة وكان عليّ أن أعودَ إلى جانب والدتي .

٥. خلال العطلة

قضيْتُ الليلةَ في الفندقِ بيارموث . وفي الصباح أقبَلَ السيد باركيس ليأخُذَني في عرَبته . لقد كان يُساورُني ، أثناء الطريق ، شعورٌ غريب : فأنا أعودُ إلى منزلي ، الذي فيه جميعُ ذكرياتي ، ومَعَ ذلكَ أشعرُ أنّهُ لم يعُدْ منزلي .

عندما وَصَلْنا أنزلَ الحوذيُّ باركيس حقيبتي عند باب الحديقة وترَكني . فسلَكْتُ الدَّربَ المؤدّيَةَ إلى المنزل . وكان أخشَى ما أخشاه أن يُطالِعَني من إحدى النوافذ وجهُ السيد مردستون أو وجهُ شقيقتِهِ . ولكنّني لم أرَ أحداً . كانت الشمسُ على وَشْكَ المغيب ، فدخلتُ بخطىً خفيفة حَيِيَّة .

كانت أمي في حجرة الاستقبالِ تجلسُ أمامَ النـارِ وتُغنّي بصوتٍ منخفض ، كما كانت تفعلُ عندما كنتُ طفلاً . وكانَ على حِجْرِها طفلٌ تُرْضِعُهُ . ولم يكُنْ في الحجرة أحدٌ غيرُها ، فخاطبْتُها ، فانتفضتْ . ولما رأتني أقبلَتْ نحوي ، ثم ركعَتْ وراحتْ تضمُّ رأسي إلى صدْرِها بجانب الطفلِ الرضيع ، الذي قرّبت يدَهُ الصغيرة من فمي وهي تقولُ : « هذا أخوكَ يا بُنَيّ ، يا ولدي المسكين ! » ولا تَكِفُّ عن احتضاني ومُداعبةِ رأسي .

وأقبلتْ بيغوتي تَجْري ، وركعَتْ إلى جانبِنـا ، وراحت تُبْدي فرَحها بشتّى الوسائل .

ولاحظتُ على أمي كثيراً من التغيُّر ؛ فقد كانَتْ تُطيلُ التأمُّلَ ، وقد رَقَّتْ إلى حدٍّ بعيد ، وأصبحَتْ يداها نحيلَتيْن شديدَتَي البياض ، حتى خُيِّل إليَّ أنّهما شفّافتان .

وبعدَ أن تناوَلْنا العشاءَ جلَسْنا نحن الثلاثة ، وقرأتُ لبيغوتي في كتاب التماسيح . وكانت تلك أمتعَ سهرةٍ ، وآخرَ سهرةٍ من نوعها قبل أن تَتّخذ حياتي وجهاً جديداً آخـر .

وحوالى الساعةِ العاشرةِ سمعْنا صوتَ عربة . فنهضَتْ أمي مسرعةً ، وقالت إنّ السيد والآنسة مردستون لا

يريدانِ أن يظلَّ الاولادُ ساهرين إلى هذا الوقت . وكان هذا غايةَ ما أرجوه ؛ فأسرعْتُ إلى الحجرة التي سَبَقَ أن حُبِسْتُ فيها .

في صباحِ اليومِ التالي كنتُ في ضيقٍ شديدٍ لاضطراري إلى لقاء السيد مردستون وشقيقتِهِ . وبعدَ تردُّدٍ طويلٍ هَبَطْتُ إلى حجرة الاستقبال فوجدْتُ السيد مردستون واقفاً قبالةَ النار . ولم يأتِ بأيِّ حركة عندما رآني ، كأنَّهُ لا يعرفني . فتقدَّمْتُ نحوَهُ ، وقلتُ إنني متأسفٌ لما ظَهَرَ مني ، نادمٌ عليه . فقال : « إنني مسرورٌ لأنك نادمٌ يا دافي ! »

وحيَّيْتُ الآنسةَ مردستون ، التي كانت تصنَعُ الشاي ؛ فمدَّت لي مِلْقَطَ السُّكَّرِ بَدَلَ أصابعها . وابتدرتني بالسؤال عن مُدَّةِ العطلة ؛ فلما عرفَتْ أنها شهرٌ تضايقَتْ . وصارتْ بعدَ ذلك تخطُّ خطاً لكل يوم يمرّ ؛ ولم تظهَرْ عليها الراحةُ إلا عندما انتهَى الشهر . وقد حرّمت عليّ أن أمسَّ أخي .

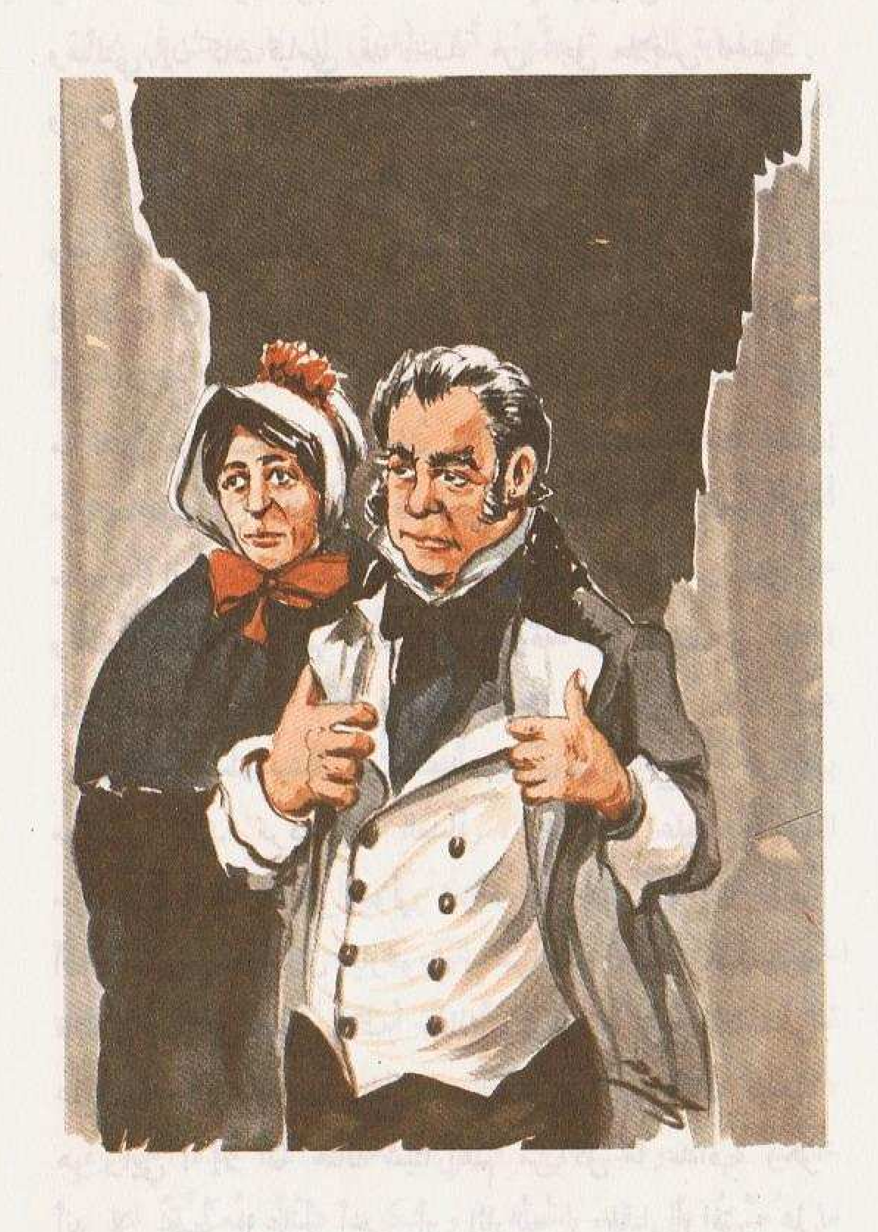
كنتُ في غايةِ التعاسةِ إذ أنَّ مَنْ يُحبُّني لا يستطيع أن يُبديَ لي حبَّه ؛ أما مَن يكرَهُني فإنهُ يُظْهِرُ لي هذا الكُرْهَ بمختلِفِ الطرُق . من أجل هذا كنتُ أقضي معظمَ الوقتِ في حجرتي أطالعُ وأنا ملتفٌّ بالأغطية . وفي

المساء كنتُ أهبطُ إلى المطبخ لأجلسَ مع بيغوتي .. ولكن السيد مردستون لم يعجِبْهُ ذلك ؛ فمنَعَني عنِ الانفراد كما منعَني عن محادثةِ بيغوتي ، فاضطُرِرْتُ إلى قضاء سحابةِ اليومِ حزيناً في حجرةِ الاستقبالِ . ودامَتْ هذه الحال حتى نهاية العطلة .

٦. أصبحت وحيداً في هذا العالم

كان قد مضى على عودتي إلى « سالم هاوس » قرابة شهرين ؛ وفي ذات صباح استُدْعِيْتُ إلى حجرة المقابلة ، فخيِّلَ إليَّ أن بيغوتي قد أرسلَتْ إليَّ بعضَ المأكولات ؛ وراح التلاميذُ يوصونني بألاّ أنساهم لدى توزيعِ الحلوى . ولكنني وجدْتُ في الحجرة السيد كريكل يتناولُ فَطورَهُ ، وفي صحبتِهِ السيدة كريكل . وأخذتْني السيدة كريكل إلى كَنَبَةٍ ، وجلسَتْ إلى جانبي ؛ وكان في يدها خطابٌ مفتوح .

قالت : « دايفيد كوبرفيلد، أنتَ الآنَ صغيرٌ لا تعرفُ كيف يتغيرُ العالمُ كلَّ يوم وكيف يختفي الناسُ الذين يسكنونه . ولكننا جميعاً نتعلَّمُ هذه الأشياء ؛ منّا من يتعلَّمُها في حداثتِهِ ومنّا من يتعلَّمُها في الشيخوخة ! »



السيد مردستون وشقيقته

فنظرتُ إليها بانتباه ؛ فاستطردَتْ قائلةً بعد لحظة صمت : « عندما تركتَ أهلَكَ في نهاية العطلة ، هل كانَ الجميعُ بخير .. هل كانت أمُّكَ مثلاً في صحة جيدة ؟ »

وبدأتُ ارتجف ، ولم أجدِ القُدرةَ على إجابتها ، فأضافت : « ذلك أني عرَفْتُ هذا الصباحَ أن والدتَكَ مريضة .. أنا آسفةٌ جداً إذ أُطْلِعُكَ على هذا .. إنّها في حالة خطرة ! »

لقد فهمتُ كلَّ شيء .. فهمتُ أن أمي ماتت ! وانتصبَتْ بيني وبين السيدة كريكل غَمامةٌ فلم أعُدْ أراها .. وفي لحظةٍ تجلّى لي هَوْلُ المصيبة التي نزَلَتْ بي : لقد أصبحْتُ وحيداً في هذا العالم !

ثم عرفت من السيدة كريكل أن أخي الصغير قد مات أيضاً بعد يومٍ واحد . وقد أظهرَتْ لي السيدة كريكل عَطفاً شديداً ، فلم تترُكْني طَوالَ اليومِ ، الذي قضيتُهُ في بكاء مـرير .

في اليوم التالي غادرْتُ المدرسةَ وفي يقيني أنني لن أعودَ إليها . وكانت بيغوتي هي أولَ من استقبلني لدى عَوْدَتي . وقدِ انفجرَتْ لوعتُها مرةً واحدةً عندما رأتني . أما السيد مردستون فلم يأبَهْ لوجودي ؛ لقد كانَ يجلسُ أمامَ النارِ يبكي بهدوء ، ويفكِّرُ مستريحاً في مقعدِه .

وأما الآنسة مردستون فقد مَدَّتْ لي رؤوسَ أصابعها ، وسألتني إن كان قياسي قد أُخِذَ من أجل ملابس الحداد . وكان هذا كلَّ عزائها لي .

في اليوم التالي لليومِ الذي أودَعْنا فيه أمي الأرضَ ، وبين ذراعَيْها طفلُها ، قالت الآنسةُ مردستون لـ «بيغوتي» إن عليها أن تغادرَ المنزلَ خلالَ شهر . أما أنا فلم تَظْهَرْ أيُّ بادرةٍ تدُلُّ على ما تَقَرَّرَ في شأني . فجمَعْتُ كلَّ ما لديَّ من شجاعةٍ وسألتُ الآنسة مردستون ذاتَ مساءٍ متى سأعودُ إلى المدرسة ، فأجابتني بجفاء أنها لا تعتقدُ بأنني سأعودُ إليها . وكانت بيغوتي مشغولةً بهذا الأمرِ مثلي ، ولكنَّ أحداً منّا لم يستطِـعْ معرفةَ أيِّ شيء في هذا الموضوع .

وذاتَ مساءٍ بينما كنتُ عند بيغوتي في المطبخ أشكو لها موقفَ السيد مردستون العدائي ، دخلت علينا الآنسة مردستون . فقالت لها بيغوتي بجرأةٍ غيرِ منتظَرَة إنها تريدُ أن تأخذني معها إلى يارموث . فردَّت الآنسة مردستون قائلة : «إنه سيُضيعُ وقتَهُ هناك ، والبطالةُ أمُّ المفاسد .. على أيِّ حال لن يُفْلِـحَ لا هنا ولا في أي مكان .. هذا هو رأيي ! إلا أنَّ هناك شيئاً أهمَّ من كل ما عداه ، وهو أنه لا يجبُ إزعاجُ أخي أو إثارتُهُ ، لهذا أوافقُ على

مطلبك ! »

في نهاية الشهر توجَّهْنا أنا وبيغوتي إلى يارموث في عربة السيد باركيس ، الذي لاحظتُ أنه كان يهتمّ بخدمة بيغوتي .

لم يتغيَّرْ شيء في المنزل — السفينة ؛ إلا أنني شعرتُ ، في هذه المرة ، أنه أصغرُ من الماضي . أما إميلي فقد دخلت المدرسة . وأما السيد بيغوتي فكان يجلسُ ، كعادته ، كلَّ مساء يدخِّنُ الغليون . وعندما كنا مجتمعينَ في المساء لمّح إلى ما حدث لي وقال ، وهو يداعبُ شعر إميلي : « هذه أيضاً يتيمةٌ ، يا سيدي ! . وهذا يتيمٌ أيضاً ! » ، وضربَ على صَدْرِ سام بظاهر يده . واغرَوْرَقَتْ عينا إميلي . قلت : « سيد بيغوتي ، لو كنتَ أنتَ وليَّ أمري لكنتُ أنا أيضاً غيرَ شاعرٍ باليُتم ! » فصفق سام وأعاد الضربة إلى السيد بيغوتي ، وهو يقول لي : « أحسنتَ ، أحسنت ، هذا هو القولُ الصحيح ! »

أثناء إقامتي في يارموث تمَّ زواج السيد باركيس ، الحوذي ، بمربيتي بيغوتي ، التي كانت قد رفضتْ طلبَهُ قبلَ ذلك عدَّةَ مرات . وفي اليوم التالي للزواج غـادرتُ « السفينة » إلى منزل بيغوتي . وقد أفردَتْ لي حجرةً خاصةً بي ، وقالت لي : « إنني سأحتفظ لك بهذه الحجرةِ ما دُمْتُ على قيد الحياة ، وستكون دائماً مُعَدَّةً لك ،

حتى ولو كنتُ في الصين . »

ثم عُدْتُ بعد ذلك إلى المنزل الذي لم يعدْ لي فيه أي شخص يُحبُّني . كانت حالي في مُنْتَهى السوء ، وكنتُ على استعدادٍ لأن أبذلَ كلَّ شيء من أجل أن أكون في مدرسة ، مهما كان نظام هذه المدرسة قاسياً . ولكن لم يكن لي أملٌ في ذلك . وكان السيد مردستون متضايقاً مني إلى أقصى الحدود ؛ وكان يُهملني مُتعمِّداً ، ويبتعد عني كأنَّهُ يريدُ أن يتخلَّصَ من فكرة أنَّ لي عليه حقاً من الحقوق . وذات يوم قال لي : « أنتَ تعرف ، كما أعتقد ، أنني لست غنياً .. وإذا كنتَ لا تعرِفُ فأنذا أعلنُ لكَ ذلك . لقد تلقَّيتُ تعليماً كلفني الكثير .. والمدارس كلُّها غالية . وحتى ولو كانَتْ رخيصةً ، أو كنتَ قادراً على دفع ما تتطلَّبُهُ فلا أعتقد بأنَّ بقاءكَ في المدرسة مفيدٌ لك .. فعليك إذن أن تكافحَ من أجلِ الحياة ، وكلَّما كانَ ذلكَ أسرَعَ كان أفضَلَ ! »

وقرَّرَ السيد مردستون أن أذهبَ إلى لندن لأعمل في المحل التجاريّ ، الذي يملكه هو وغرينباي ، والذي يختصّ بتجارة الخمور . وقال إنني سأعملُ لقاء أكلي ومصروف جيبي . أما السَّكنُ والملبس فهو يتكفَّل بهما في الوقت الحاضر .

٧. مع أسرة ميكوبر

كان بيت مردستون وغرينباي التجاري يقع في بلاكفريرز على ضفة نهر التامز . وكان بيتاً قديماً تَرْعَى فيه الجرذانُ وأمامه ساحة يَغْمرها النهرُ وقتَ فيضانه ، ويترك فيها الأوحالَ عندما ينسحب .

وكانت أعمالُ الشرِكة تتناول أصنافاً متعددةً من السِّلَع في طليعتها الخمور . وكان هناك عددٌ من العمال الكبار والصغار يعملون على غسلِ الزجاجاتِ الفارغة ، واستبعاد المعطوب منها ؛ ثم لصْق السِّمات على الزجاجات المعبَّأة ، وخَتْمها ، وقطع السدّادات ... وهذا كان نوعَ العمل الذي أُسند إليَّ . وقد كُلِّف أكبرُ الفتيان ، واسمه ميك ووكر ، بأن يدلَّني على ما يجبُ أن أفعل .

عند الظهر دعاني السيد كينيون ، شريكُ السيد مردستون ، إلى مكتبِهِ ، وقدَّمني إلى رجلٍ مُسِنٍّ قال إنه تلقى رسالة من السيد مردستون يطلب إليه فيها أن يُسكنني عنده ، لأن لديه حجرةً تعوَّد أن يؤجِّرها ، وهي خاليةٌ في الوقت الحاضر . وقال لي السيد ميكوبر — وكان هذا اسمَهُ — إنَّ عنوانَهُ : وندسور تراس ، طريق المدينة . وأبدى استعدادَهُ لأخذي مساءَ ذلك اليوم —

حتى لا أضيع .

وفي الوقت المحدَّد جاء السيد ميكوبر ، ومضى بي إلى المنزل ، حيث قدَّمني إلى السيدة ميكوبر ، وهي امرأةٌ نحيلةُ الجسد شاحبةُ اللون ، تخطَّتْ سنَّ الشباب من زمن . وكانت عندما وصلنا تُرْضِعُ طفليها التوأمين . وفي خلال إقامتي عند آل ميكوبر لم أرَ التوأمَيْن إلا محمولَيْن على ذراعَيْ أمهما . وكان للزوجَيْن ولدانِ آخرانِ : صبيٌّ في الرابعةِ وبنتٌ في الثالثة .

كانت حجرتي في الطبقةِ العليا من البيت ؛ وكانت ضيِّقةً ، قليلة الأثاث . وقد أخذتِ السيدة ميكوبر تتحدث إليَّ عن زوجها ، وهي تريني الحجرة . ولعلها أخبرتني أنه خدَمَ في البحرية ؛ أما في الوقت الحاضر فهو يعملُ سمساراً لعدَّة بيوت تجارية ، ولكنه لا يكسبُ سوى القليل . من أجل هذا كان الدائنون يُرهقونه باستمرار . ووصَلَ به الأمر ذات يوم إلى محاولة الانتحار ، أو التظاهر بذلك ، كما فهمتُ من صراخ زوجته . ولكنْ لم يمضِ نصفُ ساعة على ذلك حتى عَمَدَ إلى تلميع حذائه ؛ ثم خرج وهو يدندنُ بإحدى الأغاني ، ويبدو على آخر مزاج . وكانت الزوجة تتمتعُ بنفس هذه المزية .

كنت أقضي كلَّ أوقات فراغي مع هذه الأسرة . وكنت

أحمل معي إلى المنزل طعامي المتواضع ، الذي يتلاءم مع أجري الضئيل . وطوال الأسبوع لم أكن أتلقَّى أيَّ نصيحةٍ أو معونةٍ أو تشجيعٍ أو عزاءٍ من أحد ؛ مع أني كنت أصغرَ من أن أتولى أموري بنفسي .

الواقعُ أن هذه الحياةَ البائسةَ التي كنت أحياها كان من شأنها أن تحوِّلني إلى لصٍّ ومتشرد . ولكنْ كان لديَّ شعورٌ بالكرامة ، وكنتُ أخفي آلامي عن الجميع ، في الوقت الذي كنت أقومُ فيه بما يُطْلَبُ مني على خير وجه .

لهذا كان السيد كينيون يعاملني معاملةً مختلفةً عن المعاملة التي يلقاها زملائي . لقد فهمتُ ، منذ البداية ، أنَّ الوسيلةَ الوحيدةَ لتجنُّب احتقار الآخرين وسُخريتهم هي إجادة العمل مثلهم . وهكذا لم ألبثْ أن أصبحت ، على الأقل ، في مستوى رفاقي ، من حيث النشاطُ والبراعة . بالطبع كنت أعيشُ معهم في وحدة حال . ولكنَّ تصرفاتي كانت مختلفةً عن تصرفاتهم ، مما جعل مسافةً بيني وبينهم . فقد كانوا يدعونني « بالسيد الصغير » .

لم يكن أمامي أيُّ أمل في الخلاص من حياتي تلك الرهيبة . وقد كففت عن التفكير في ذلك ؛ إلا أنني لم أرضَ يوماً بأن يكون هذا هو مستقبلي . كنت في غاية التعاسة ، ولكنني كنتُ أحتملُ آلامي بصمت ، ولا أذكر

شيئاً من ذلك في رسائلي إلى بيغوتي لخجلي ، من ناحيةٍ ، من هذا الوضع ، وحِرْصي على عدم إيلامها من الناحية الأخرى .

وبما كان يزيد في قلقي ذلك الضيقُ الذي يسيطر على حياة الأسرة التي أعيشُ معها ، أسرة ميكوبر .. فلقد اندمجت مع هذه الأسرة ، وأصبحت أراجعُ بيني وبين نفسي الحساباتِ التي كانت السيدة ميكوبر ، تجريها باستمرار وأشعر أن ديون الأسرة عبء عليَّ أنا . وساءت أمورُ آل ميكوبر إلى درجة أن السيد ميكوبر أُوْدِعَ السجن ، وبيع أثاث منزلِهِ بالمزاد ، ولم يَبْقَ سوى السُّرُر وبعضِ الكراسي ومائدةِ المطبخ . وقد انتقلت السيدة ميكوبر إلى جانب زوجها في السجن ، حيث خُصِّصَتْ له حجرةٌ مستقلة ، وصرتُ أحملُ أنا مفتاحَ المنزل . ثم أرسل المالكُ ما خصَّ ميكوبر إلى السجن باستثناء سريري ؛ وكان في غاية الفرح ، إذ أن منزلَهُ عاد إليه . وقد انتقلتُ ، أنا ، إلى غرفةٍ قريبةٍ من ذلك المكان .

وبعد مدةٍ خرجَ السيد ميكوبر من السجن استناداً إلى القانون الخاص بالمَدينين المفلسين . وقالت لي السيدة ميكوبر إن أسْرَتَها ـ وكانت تتحدث عنها بمنتهى الفخر ـ ترى أن على ميكوبر أن يغادرَ لندن ويعملَ في مكانٍ آخرَ يمكن

ان يستغلَّ فيه مواهبَهُ ، وقد استأجرتِ الأسرةُ شقةً صغيرةً ، في البيت الذي أسكنُ فيه ، لقضاء أسبوع ريثما تغادر لندن .

وذات صباح ، بعد أن أوصلتُ أصدقائي إلى العربةِ المتوجِّهة إلى بليموث ، ذهبت إلى عملي وأنا مصممٌ على الهربِ والالتجاء إلى القريبةِ الوحيدةِ التي بقيت لي ، وهي الآنسة بتسي ، عمةُ والدي . ولكنني لم أكن أعرفَ عنوانها ؛ فكتبتُ إلى بيغوتي علَّها تذكُرُ هذا العنوان . وذكرتُ لها في الرسالة أنني بحاجة إلى نصف جنيه ، وأنني سأكونُ شاكراً لها صنيعَها إن استطاعت أن تقرِضني إياه .

وما لبث رد بيغوتي أن وصل وفيه نصف الجنيه . وقد أخبرتني أن الآنسة بتسي تقطن بالقرب من دوفر ، ولكنها لا تعرف إن كانت تقيم في دوفر نفسها أم في سانغيت أم في هايث أم في فولكستون . غير أن تاجراً قد أخبرني أن هذه المدنَ متصلَةٌ ببعضها . فقرَّرْتُ الرحيلَ في آخر الأسبوع .

وقد أرَدْتُ الا أشوِّهَ السمعةَ الحسنة التي اكتسبتُها ، فعزمْتُ على البقاء في العمل حتى مساء السبت ، ثم الذهابِ دون أن أتقدَّمَ إلى مكان الصرف لأتقاضى أجرَ أسبوع ، إذ أني كنت قد تقاضيْتُ الأجرَ مقدَّماً ؛ وهذا هو السببُ



حديث بين دايفيد وأمه

الذي دعاني إلى استدانة النصفِ جنيه من بيغوتي .

في مساء السبت غادرتُ مكانَ العمل ، ورحتُ أفتش عَمَّنْ يوصلُ لي حقيبتي الكبيرةَ إلى محطة العرباتِ التي تسافرُ إلى دوفر . فوجدت رجلاً ضخماً معه عربة صغيرة يجرُّها حمار . فاتفقت معه ؛ ولكن ما إنْ وضعَ الحقيبةَ على العربة حتى أقبلَ عليَّ فانتزعَ مني النصف جنيه بالقوة ، وانطلق بعربتِهِ بأقصى سرعة الحمار . فرحت أعدو وراءَهُ ، ولكنني لم أستطِعْ أن أدركه ، فتوقفت بعد أن تقطعت مني الأنفاس .

٨ . في ضيافة عمتي بتسي

على أني قررتُ ألا أعود . وعلى طريق « كنت » جلستُ على عتبةِ منزل وأنا في غاية التعب . وسمعتُ الساعاتِ تدقُّ العاشرة . ولكنَّ الفصلَ صيفٌ والجوّ حارٌ ؛ فمضَيْتُ في طريق غرينتش . وكان أكثر ما يشغل بالي خلوّ جيبي إلا من ثلاثة فلوس . فدخلت دكاناً بعت فيه صُدْرتي بعشرين فلساً ؛ واستأنفت المسير . فلما تعبت لجأت إلى جانب كومة من العلف الجاف ، لقضاء تلك الليلة .

في اليوم التالي سرتُ طولَ النهار ، وقطعت تسعة

فراسخ ؛ ولكنني أشرفتُ على الهلاك . ومع ذلك منعتُ نفسي ، وأنا أمرُّ مساءً بجانب نُزُلٍ أو نُزُلَيْن ، من أن أضعُفَ أمامَ الإغراء وأبدِّد الفلوس القليلة التي بقيَتْ معي . وعلى هذا قرَّرْتُ أن أقضيَ الليلَ في العراء كما فعلْتُ في الليلة الماضية .

في الصباح شعرتُ أنني غيرُ قادرٍ على السير ، فقررتُ — وكنتُ في شاثام — أن أستغلَّ النهارَ في العمل على بيع سترتي ، التي خلَعْتُها وحملْتُها على ذراعي ، لأتعوَّد الاستغناء عنها . وقد بعتُها بالفعل لتاجر ملابس قديمة ، كريهِ الشكل ، اتفق معي على شرائها بشلنَيْن ، ولكنه لم يدْفعْ لي سوى شلنٍ وأربعةِ بنسات ، بعد أن تركني أنتظر مدةً طويلة .

في اليوم السادس من رحلتي تلك المغامرةِ الشاقّة وصلتُ إلى دوفر ، وأنا في حالة يُرْثَى لها : أشعثَ أغبرَ ، ممزَّقَ الحذاء متَّسخَ الثياب .

أين أجدُ الآنَ عمّتي ؟ مَنْ أسألُ عنها ؟ من يعرفها ؟..

قضيتُ ما قبلَ الظهر كلّه في التفتيشِ والسؤالِ ، فلم أصِلْ إلى نتيجة . ولكنَّ الصُدْفة أوقعتْني على حوذيّ من المنطقة هداني إلى المكان . ولكنه قال لي، ظناً منه أنني شحاذ :

« في اعتقادي أنها لن تعطيَك شيئاً .. خذ هذا البنس مني ! »

فقبلْته شاكراً ، واشتريتُ به قطعةَ خبز رُحْت التهمها ، وأنا أسيرُ في الاتجاه الذي رسمه لي .

عندما وصلتُ إلى المنازل التي أشار إليها الحوذيّ ، دخلْتُ إلى دكان ، فوجدت صاحبَها يزن أرُزّاً لامرأة . فسألتُهُ إن كان يعرفُ الآنسة تروتوود ، فأجابت المرأة سائلة : « ماذا تريد من سيدتي ؟ »

قلت : « أريد أن أحدِّثها في أمر ، فأرجوكِ أن تقوديني إليها ! »

— « أتريد منها صدَقة ؟ »

— « كلا ، بالطبع ! »

ولكنَّ الدَّمَ صعَدَ إلى وجهي .. لمَ أتيتُ إذن ؟

ولما وصلْنا قالت : « هذا هو البيت ! »

ثم أسرعتْ داخلةً لتُخلِي نفسها من المسؤولية . نظرتُ إلى شباك البهو فلم أرَ أحداً . وأطل عليَّ ، من فوقُ ، رجلٌ أحمرُ الوجه قد وخطَهُ الشَّيْبُ وراحَ يُشيرُ برأسه إشاراتٍ متناقضة ، تعني نعم ولا ، وقد أغلق عيناً وفتح الأخرى . ثم أطلق ضحكةً واختفى .

ثم خرجت امرأةٌ تربطُ منديلاً فوقَ قبَّعتِها وتلبس في يدَيْها قفّازاً للعمل في الحديقة وإزاراً فوق ملابسها ، وتحملُ سكيناً كبيرة . فعرفْتُ في الحال أنها الآنسة بتسي ،

لأنها كانت تسير بعظَمة، كما وصفَتْ لي أمي. قالت الآنسة بتسي وهي تحركُ سكّينها:

«إذهبْ من هنا.. أخرج، فلا صبيان يدخلون إلى هذا المكان!»

قلت: «سيدتي، من فضلك...»

فانتفضَتْ ورفعَتْ عينيها. قلت:

«عمّتي، من فضلك...»

قالت: «هه؟» بدَهَشٍ لم أرَ مثله في حياتي. قلت:

«أنا ابنُ ابنِ أخيكِ!»

فصاحت: «يا إلهي!» وجلستْ في الممر على الأرض.

وعدت أقول: «أنا دايفيد كوبرفيلد من بلندرستون، كونتية سوفولك، حيث جئتِ عشيةَ مولدي لتَرَيْ أمي العزيزة... إنني تحمّلْتُ كثيراً من الشقاء منذ وفاتها...»

وسَرَدْتُ لها باختصار ما حلَّ بي وكيفَ اضطرّني عمّي إلى مزاولةِ عملٍ لم أُخلَقْ من أجله، وكيف هربت لألجأ إليها... ثم انخرطْتُ في البكاء.

كانت، وأنا أتحدث، لا تعبّر إلا عن الدَّهَش وهي جالسةٌ على الرمال. فلما بدأتُ أبكي نهضَتْ إليَّ، فأخذتني من ياقتي وأدخلتني إلى غرفة الاستقبال. وأوّلُ ما فعلته هو أنها أخرجتْ عدّةَ زُجاجات من إحدى الخِزانات وسقَتْني

مما فيها، ولما كنت أشهَقُ بحركة عصبيةٍ من كثرة ما بكيت، فقد مدّدَتْني على الكنَبة، بعد أن فرَشَتْ غطاءً تحتَ رأسي ومنديلَها تحت قدمي. وكانت، وهي تفعل ذلك لا تفتأ تردد: «أيتها العنايةُ الإلهية!».

بعد أن انتهَتْ من ذلك، دقّتِ الجرَسَ، فأقبلتِ الخادمة.. قالت لها: «جانيت، إصعَدي عند السيد ديك، وسلّمي عليه وقولي له إن لي كلاماً معَهُ».

وقد دُهِشَتْ جانيت عندما رأتْني ممدّداً على الكنَبة كالتمثال.. ذلك أنني كنتُ لا أتحرّكُ خوفَ أن أُغضِبَ عمّتي. وجاء السيد ديك، وهو نفْسُ الرجل الذي رأيته، بينما كانت عمّتي تذرعُ الحجرةَ جيئةً وذَهاباً ويداها خلْفَ ظهرها. قالت: «سيد ديك، قبل كل شيء لا أريد سُخفاً.. نحن نعرفُ أنك أعقلُ من أيِّ واحدٍ عندما تريد.. فأرجو ألا تتساخف!»

وفي الحال اتخذَ السيد ديك وَضْعاً جاداً وهو ينظرُ إليَّ كأنه يرجوني ألا أتحدّثَ عن الحركاتِ المضحكةِ التي كان يقوم بها منذُ لحظات.

وعادت عمّتي تقول: «سيد ديك، أما سَمِعْتَني أتحدث عن دايفيد كوبرفيلد؟ لا تُوْهِمْني بأنك ضعيف الذاكرة!»

وبدا لي أنَّ السيد ديك ليس في ذاكرتهِ شيء واضحٌ عن المسألة ؛ ولكنه قال :

« دايفيد كوبرفيلد ؟ أوه .. بلى ، بالطبع .. دايفيد ! »

قالت عمّتي : « والآن .. هذا الولد الذي تراه مُمَدَّداً هنا هو ابنُ دايفيد .. والسؤالُ الذي أريدُ أن ألقِيَهُ عليك هو :

« ماذا يجبُ أن أصنعَ به ؟ »

– « ماذا تصنعينَ به ! .. ماذا تصنعينَ به ؟ »

كرَّرَ هذا وهو يَحُكُّ جبهتَهُ . قالت عمّتي وهي ترْفَعُ إصْبَعَها :

– « نعم ، وحذارِ .. أريدُ رأياً سديداً ! »

قال وهو يفكر :

– « لو كنت في مكانك .. لكنتُ .. صَنَعْتُ له حمّاماً ! »

قالت عمّتي : « ديك دائماً على حق ! جانيت .. سَخِّني الحمام ! »

كانت عينا ديك تبرقانِ بصورةٍ غريبة ؛ وكان يَفرَحُ كالاطفال إذا وجَّهَتْ إليه عَمَّتي بعضَ المديح . وقد شعرْتُ أنه مختلٌّ إلى حدٍّ ما .

وقد أدهشني أن أرى الخادمةَ تنطلِقُ كالسَّهم إلى الخارج ، وكذلك عمّتي ، لتطردا ثلاثةَ حمير كانت تمرُّ

في الأرض الخضراء المجاورة ؛ وقد صفعتْ عمّتي الغلامَ المسكينَ الذي كان يقودها . ومنذ ذلك الحين عرفتُ أن عمّتي كانت تعتبرُ أن هذه الأرضَ تابعةٌ لها ، ولذلك كانت تَسْتَشيطُ غضباً إذا رأت حماراً يَطَأُها .

بعد الحمّام شعرتُ بكثير من الراحة ، ولكنَّ جميع أعضائي كانت محطَّمةً ، بسبب الليالي التي قضيتُها تحت القُبَّة الزرقاء . وقد ألبسَتْني عمّتي وجانيت قميصاً وبنطالاً للسيد ديك ، ثم لفّتاني بشالَيْن أو ثلاثة ، حتى أصبحتُ أشبهَ بِصُرَّة . ولكنني أحسست بالدفء ، وما لبِثْتُ أن نمت .

عندما أفقْتُ كانت مائدةُ الغداء جاهزةً ، وعليها نبيذ « كزيريس » الذي سقتني منه عمّتي كأساً لتُدَفِّئني .

وجاء السيد ديك بَعْدَ الغداء ، فطلبَتْ إليه عمّتي أن يجلسَ ويستمع بانتباهٍ إلى قصّتي ، التي سَرَدْتُها من ألِفها إلى يائها ، مع كل التفاصيل . وكانت عَمَّتي لا ترْفَعُ عَيْنَيْها ، أثناء السَّرْد ، عن السيد ديك حتى لا يَغْفُو .

وكانت ، إذا حاولَ أن يَبْتَسِمَ ، تدعوه فوراً إلى الانضباط .

في المساء صَعَدَ بي الثلاثةُ إلى حيث أُعِدَّ سريري ، كأنني سجينٌ بين الحرَس ، وكانت عمّتي في المقدّمة وجانيت في المؤخرة .

ولما هبطتُ صباحاً وجدتُ عمتي غارقةً في التأملات ، حتى إن الماء في إبريق الشاي كان يفورُ ويسيلُ إلى الخارج . ولكنَّ دخولي أخرجَها من تأملاتها . وبادرَتْني بقولها:

– « لقد كتبتُ إليه ! »

– « إلى من ؟ »

– « إلى عمِّك !.. أرسلتُ إليه رسالة لا بد أن يأتي على أثرِها ، وإلاَّ ذهبنا إليه ! »

قلت وقد تولاني الهلع :

– « هل عرَّفتِه بمكاني ، يا عمتي ؟ »

– « نعم ! »

– « وهل ستعيدينني إليه ؟ »

– « لا أعلم .. سوف نرى ! »

– « أواه . يا إلهي ! ما الذي سيحدث لي إذا عدت إلى آل مردستون ؟ »

– « لا أعلم .. لا أعلم .. سنرى ! »

وسألتْني أثناء النهار عن رأيي في السيّد ديك؛ فقلت لها إنهُ لطيف . فأخبرتني أن أخاه ادَّعى أنه مجنون ، وحاول أن يرسلَهُ إلى مستشفى الأمراضِ العقلية . ولكنَّ عمتي حمَتْهُ وقالت لأخيه إنه هو المجنون . وطلبتْ إليه أن يُعيِّن له راتباً وهي مستعدةٌ لأن تُسكِنه عندها .

وقد دلَّني هذا التصرف على أن عمتي ، رَغْمَ شُذوذِها وغرابتها ، مخلوقةٌ طيّبةٌ تستحقُّ الاحترامَ والثقة ، لأنها تدافعُ عن المظلومين؛ وعاودَني الأملُ بأنها لن تتخلّى عني .

في اليوم التالي وَصَلَ السيد مردستون وشقيقتهُ . واستدعتْ عمتي السيد ديك ، الذي كان يحاولُ أن يكونَ في غايةِ الانتباه . قال السيد مردستون :

– « عندما تلَقَّيْتُ رسالتكِ وجَدْتُ من واجبي ، واحتراماً لك أن ... »

فقاطَعَتْهُ عمتي قائلة :

– « شكراً لك .. لا تَهتمَّ بي ! »

ولكنه مضى مكمِّلاً كلامَهُ :

– « ... أن آتيَ لأجيبكِ عليْها بنفسي ، لا عن طريق الكتابة .. إنَّ الولدَ المسكينَ الذي هَرَبَ من أصدقائهِ ومن عملِه ... »

وأكملت أختهُ قائلةً وهي تَلْفِتُ النظر إلى ثوبي الغريب : « ... والذي يَصْدم مظهرُهُ ويُثير الاشمئزاز ! »

فقال أخوها : « جين مردستون ، أرجو الا تقاطعيني ! » ثم استطرد قائلاً : « هذا الولد المسكينُ ، يا آنسة تروتوود كان السببَ في حدوثِ كثير من المشكلات العائلية والمتاعب في حياة المرحومة كلارا وبعد وفاتها . إنه شَرِسُ الطباع

يتمرَّدُ على كل سلطة ، ولا يعرف الواحدُ كيف يعاملُهُ .
حاولتُ ، أنا وشقيقي ، أن نصلحَهُ ولكنَّنـا لم نتمكَّنْ
من ذلك . وقد رأينا أن نأتيَ لنعلِنَ لكِ ذلك دون حقدٍ أو
غضب . »

وقالت الآنسة مردستون : « إن كلامَ أخي لا يحتاجُ
إلى تأييد مني ، ولكنني أستأذنُ في أن أضيف أنه لا يوجد
بين جميع الأولاد في العالم مَنْ هو أسوأ منه ! »

قالت عمّتي : « هذا كثير ! »

مس مردستون : « إنهُ ليس بكثيرٍ إزاء الوقائع ! »

وقال السيد مردستون : « إنَّ لي رأيي الشخصيَّ في
طريقة تربيته . ورأيي مَبْنيٌّ على أساسِ معرفتي بمدى
استطاعتي ومقْدارِ دَخْلي . وهذا شيء خاصٌ بي أنا .
وقد تصرَّفْتُ حَسْبما أراه . وأُضيف أنني وَضَعْتُ هذا
الوَلَدَ تحت إشراف أحدِ أصدقائي في تجارة مشرِّفة ..
فلم يَرُقْ له ذلك ، فهرَبَ وراحَ يَهيمُ على وجههِ
كأيِّ متشرِّدٍ حتى جاء إليك في أسمال يطلبُ المعونة .
وأنا أريدُ أنْ أبيِّنَ لكِ النتائجَ التي تترتَّب على حمايتِكِ
له بعد كل ذلك . »

قالت عمّتي : « لنبدَأْ أولاً بالعملِ المشرِّف الذي
تحدَّثْتَ عنه .. لو كان هو ابنَكَ هل كنتَ تختارُ له هذا

العملَ ؟ »

فأجابت الآنسة مردستون : « لو كان ابناً لأخي لكانت
أخلاقُهُ مختلفةً تماماً ! »

قالت عمّتي : « لو ظَلَّتْ أمُّهُ المسكينةُ على قيد الحياةِ
هل كان سيقومُ بمثل هذا العمل المشرِّف ؟ »

قال السيد مردستون : « أظن أن كلارا ما كانت لتَرفُضَ
شيئاً رأينا أنا وأختي أنَّهُ صواب ! »

عمّتي : « هكذا ؟!.. يا لَهُ من طفـلٍ بائسٍ !..
ومعاشُ تلك المرأة المسكينة ؟ هل انطفأ بانطفائِها ؟ »

مردستون : « أعتقدُ ذلك؟ »

عمّتي : « والمنزلُ والحديقةُ ، ألم ينتقلا إلى ابنها ؟ »

مردستون : « إنَّ زَوْجَها الأوَّلَ تركَ لهـا حرية
التصرف ... »

فقاطَعَتْهُ عمّتي بغَضَب : « أعرفُ جيداً أنهُ تَرَكَ
لها كلَّ شيء دون شروط .. أعرف أن دايفيد كوبرفيلد لم
يكن ممَّنْ يتوقَّعون حدوثَ المصائب والإشكالات ..
وبالطبع تَرَكَ لها كلَّ شيء دون أن يَضَعَ أيَّ شرط ..
ولكنْ عندما تزوَّجَتْ مرةً أخرى .. ولنكن صرحاء ..
عندما نَزَلَتْ بها مصيبةُ الزواج منك ، ألم يَقُلْ أحدٌ
كلمةً في مصلحة هذا الطفل ؟ »

مردستون : « إنَّ زوجتي كانت تحبُّ زوجَها الثاني وتَثِقُ به إلى أقصى الحدود ! »

عمّتي : « إن زوجتَكَ كانت طفلةً مسكينةً شقية لا تعرِفُ شيئاً عن الحياة .. والآن ماذا أنتَ فاعلٌ ؟ »

وأجابها السيد مردستون بأنه مستعدٌ لأخذي ، ولكن دونَ أيّ قيد أو شرط ، لأنَّهُ لم يأتِ إلى هنا لتُملَى عليهِ الشروط ؛ وهو حرٌّ أن يَصْنَعَ بي ما يشاء .

وكانت عمّتي تستمعُ إليه وهي منتصبةُ الظهر أكثرَ من أيّ وقت ، وقد وضعَتْ يدَيْها على ركبتيها وثبَّتَتْ عينيَيْها في عينيهِ لا تحوِّلهما ، ولما انتهى التفتَتْ إلى الآنسة مردستون وسألتها :

ـ « وأنتِ ، هل عندكِ ما تضيفينَهُ ؟ »

ـ « الحقَّ أن أخي عبَّرَ عن كلّ أفكاري بمنتهى الوضوح ، وليس لديّ ما أضيفُهُ سوى أن أشكركِ على أدبِكِ أو بالأحرى على أدبكِ الفائق ! »

فلم تحفلْ عمّتي بقولها ولم تهتزّ ، بل قالت :

ـ « لنسمعْ رأيَ الولد .. دايفيد، هل أنت مستعدٌ للرحيل ؟ »

فأجبت بأنني لا أريدُ ذلك ، واستحلفْتُ عمّتي أن لا

تَدَعَهُ يأخذني . وقلتُ إنه وشقيقتَهُ لم يحملا لي سوى البغض ، وقد كنتُ عندهما في غاية التعاسة .. وَعُدْتُ أستحلِفُها بذكرى والدي أن تَحْمِيَني وتَدْفع عني شَرَّهُما .

والتفتت عمّتي إلى السيد ديك ، الذي كان أثناء الحديث يحرِّك بيده مجموعةً من النقود المَعْدِنيةِ في أحد جيوبه فيُحدث صوتاً مثيراً مما دفعَ عمّتي إلى وقْفِهِ بنظرةٍ خاصةٍ . ثم التفتت إليه وسألته :

ـ « سيد ديك ، ماذا نصنَعُ بهذا الولد ؟ »

ففكر السيد ديك ثم أجاب بعْدَ تردُّد :

ـ « نأخذ قياسَهُ لنصنعَ له ثوباً ! »

فصاحت عمّتي بلهجة المنتصر ، وهي تصافح السيد ديك :

ـ « إن عقلَكَ لا مثيلَ له ! »

ثم جرَّتني إلى جانبها وقالت للسيد مردستون :

ـ « في استطاعتك أن تذهبَ، فأنا محتفظةٌ بالولد .. سأجرب حظي معه ، فإن كان حقاً كما وصفتَ فلا أسهلَ من أن أصنعَ به ما صنعتَهُ أنت .. ولكنني لا أصدِّق أيّ كلمةٍ مما قلت .. نهاركَ سعيدٌ يا سيد .. نهاركِ سعيدٌ يا آنسة .. إذا رأيتُكِ مرةً أخرى تركبين حماراً وتَمُرِّين فوق أرضي ـ وكانت الآنسةُ مردستون قد دخلت بحمارها



« بيغوتي » و « بركيس »

إلى الأرض الخضراء ونَهَرَتْها عمتي بقسوة — فكُونِي واثقةً ، وثوقَكِ بأنَّ لك رأساً فوقَ كتفيْكِ ، من أنني سأنتزعُ قبعتَكِ وأدوسَها بحذائي ! »

بعد رحيل الأخوَيْن مردستون ، هَدَأتْ عمتي ، فتجرأْتُ وأقبلتُ عليها أعانقُها وأشكرُها . وشكرتُ السيد ديك الذي كان يقهقهُ كلَّ خمس دقائقَ احتفالاً بهذا النصر المبين . وقالت له عمتي إن عليه أن يعتبرَ نفسَهُ وصياً عليَّ مثلَها . ثم سألتْهُ إن كان يوافق على تسميتي تروتوود . فقال : تروتوود ابن دايفيد كوبرفيلد . وقرَّ الرأيُ على أن أُدعَى تروتوود كوبرفيلد . وكانت عمتي فرِحةً بذلك حتى إنها رسمَتْ بنفسها هذا الاسمَ على القمصان التي اشترَتْها لي قبل أن أرتدِيَها ؛ وأمرَت بأن يسجَّلَ على جميع الملابس التي أوصَتْ بتفصيلها فوراً .

٩. بداية صفحة جديدة في حياتي

لم نلبَثْ أنا وديك أن أصبحنا صديقَيْنِ حميمَيْن ؛ فكنا نخرج معاً للنزهة ونطيِّر طيارةً صَنَعَها بيده . وكانت عمتي راضيةً عن هذه الصداقة . وقد بدأت تحبُّني وتتعلق بي .. بل إنها شجَّعتني بقولها إنني إذا ظلَلْتُ كما بدأتُ

فسأنافسُ في قلبها أختي بتسي تروتوود. وقد اختصرَتْ اسمي فجعلته تروت.

وذات مساء، وبعد أن وَضَعَتِ النَّرْدَ (طاولةَ الزهر) لتلعبَ هي والسيد ديك، قالت لي:

« تروت، ينبغي ألا نُهْمِلَ تعليمَكَ! »

فطرتُ من الفرح، لأن هذه هي المسألةُ التي كانت تُقْلِق بالي. وسألتني:

— « هل يروقُكَ أن تذهبَ إلى مدرسةٍ داخليةٍ في كنتربري؟ »

فأجبتُ بأنَّ هذا يَسُرُّني جداً، وعلى الأخصِّ أنني لن أكونَ بعيداً عنها. قالت:

— « حسناً.. هل تحبُّ أن ترحلَ غداً؟ »

— « نعم! »

ولكن نبأ رحيلي أحزنَ السيد ديك، إلا أنه تعزى إذْ عرَفَ أنني سآتي كلَّ سبت، وأنَّ في إمكانهِ أن يزورَني هناك.

وقادتْ عمتي العربة بنفسها، في اليوم التالي، لأنّها لا تحفلُ بالرأي العامّ. وعندما وصَلْنا إلى كنتربري، توقَّفْنا أمام بناءٍ قديمٍ، متقدّمٍ عن حدود الشارع. ولمحتُ وجهاً عَظْمياً في نافذة صغيرة. وما لبث نفس

الوجهِ العَظْميَ أن أطلَّ علينا عندما فُتح لنا الباب.

كان الفتى الذي فتح لنا أحمرَ الشعر، يبلغ الخامسة عَشْرَةَ وإن كان شكلُهُ يُعْطيه سناً أكبر. وكانَ يَبْدُو وَجْهُهُ الشاحبُ وكأنّهُ رُشَّتْ عليه نُخالةٌ. وقد لَفَتَتْ نظري كفّاهُ الطويلتانِ النحيلتانِ اللتانِ تُشْبِهانِ كَفَّيْ هَيْكلٍ عظمي.

وسألَتْهُ عمتي: « هل السيد ويكفيلد موجود، يا أوريا هيب! »

فأجابَها مُشيراً إلى إحدى الحُجَر:

— « نعم، يا سيدتي! تفضلي! »

كان السيد ويكفيلد، وهو محامٍ مُكَلَّفٌ بإدارة ممتلكاتِ أحد الأغنياء في تلكَ الناحية، غارقاً بين الأوراقِ. قال وهو يرحب بعمتي:

— « أيُّ ريح طيبة جاءت بكِ إلينا؟ »

— « أنا آتيةٌ من أجل ابن أخي! »

— « لم أكنْ أعلمُ أنَّ لكِ ابنَ أخ! »

— « أقصدُ حَفيدَ أخي.. لقد تبنَّيْتُه، وجئتُ به كي أجِدَ له مدرسةً داخليةً يتعلَّمُ فيها جيِّداً ويعامَلُ معاملةً طيبة. »

— « أنا أعرِفُ مدرسةً تَفُوقُ ما عداها من المدارس،

ولكنْ لا يمكنُ أن يسجَّل فيها ، في الوقت الحاضر ، إلا كخارجيّ !. »

— « ولكنْ لا بُدَّ له من أن يقيمَ في مكانٍ ، حتى ذلك الحين . »

— « أتركيه هنا ، فالبيتُ واسعٌ وهادىء هدوءَ الأديرة ، ففي استطاعتهِ أن يذاكرَ بكلّ راحة . »

— « إنني شاكرةٌ لك هذه العنايةَ ، ولكنْ ... »

— « لا عليكِ ، يا آنسة تروتوود !.. لقد فهمتُ ما تريدين أن تقولي .. أنا لا أريد أن أُلزمَكِ بقبول استضافتي له .. في إمكانكِ أن تدفعي أجرَ إقامته ، ولن نختلفَ على هذا الأمر . »

— « هذا الشرط يريحني ، مع أنه لا يُنقصُ عِرْفاني بجميلكَ .. وإنه ليسرُّني أن يكونَ هنا في منزلك ! »

— « إتفقنا .. إذن تعاليَ لتريْ ربّةَ بيتي الصغيرة ! »

وصعدنا سُلَّماً قديمةً من خشب السِّنديان ، ودخلْنا حُجرةَ استقبالٍ كأنَّ مقاعدَها وأعمدة سقفِها وأرضَها الملمَّعةَ قد صُنِعَتْ كلُّها من نفس شجرة السِّنديان .

وقَرَعَ على بابٍ زجاجي فخرجَتْ علينا صَبيّةٌ ، في مِثلِ سِني ، يَطْفَحُ وجهُها بالبِشْر والسعادة ، ويَنِمُّ عن سَكينةٍ روحيّةٍ لن أنساها ما حَيِيْت . وعانقت السيد

ويكفيلد الذي قدّمها بقوله :

« ها هي ربَّةُ البيت ، ابنتي آغنيس ! »

وعندما سمِعْتُ بأيِّ لهجة ينْطِقُ هذه الكلماتِ ، ورأيْتُ بأيِّ حنانٍ يُمْسِكُ يدَها ، فهِمتُ أنَّها الهدَفُ الوَحيدُ لِحياته . واستَمَعْتُ إلى كلامِ أبيها في شأني باهتمامٍ ؛ ومِنْ ثمَّ صَعَدَتْ بنا لتُرِيَنا الحُجْرةَ التي ستُخَصَّصُ لي . كانت حُجْرةً واسعةً أنيقةً أرضُها وسَقْفُها مِن نفسِ خَشَبِ الجوز . وقد شَعَرْتُ بفرحٍ بالغٍ ، وأنا أرى مقَرِّي الجديد .

وقالت لي عَمَّتي وهي تغادرُ المكانَ :

— « تروت ، إصنعْ ما يرفعُ رأسَك ورأسي ورأسَ ديك ، ولْيَكُنِ اللهُ معَكَ ! »

كنتُ في غايةِ التأثرِ ، وكلُّ ما استطَعْتُ أن أفعلَه هو أني شكَرْتُها وحمَّلْتُها تحياتي إلى ديك . قالت :

— « ترفَّعْ عن الدنايا .. لا تكذِبْ أبداً .. لا تكنْ قاسيَ القلب .. فإنِ ابتعدْتَ عن هذه المفاسدِ الثلاث ، يا تروت ، حقَّقْتَ فيكَ أملي ! »

فوَعَدْتُها بألاّ أنسَى وصاياها وأن أكونَ دوْماً عند حُسْنِ ظنّها بي .

في اليوم التالي أخذَني السيد ويكفيلد إلى مدرَستي

الجديدة ، وقدَّمَني إلى المدير ، الدكتور سترونغ ، الذي ، مع تقدُّمِهِ في السنّ ، كانَتْ له زوجةٌ شابَّةٌ لا يَظُنُّ أحد ، عندما يراهما معاً ، إلا أنها ابنتُهُ .

لقد تبيَّنَ أن المعلوماتِ التي كنتُ قد أخذْتُها ، تبخَّرَتْ في محل مردستون وغرينباي ، وأنني لا أعرِفُ شيئاً ؛ ولهذا وُضِعْتُ في أوَّل صف من صفوف المدرسة .

ولكنَّ تأثيرَ بيت ويكفيلد ، الذي طَرَقْتُ بابَهُ في ذلك اليومِ وأنا متأبطٌ كتبي الجديدة ، قد بدأ يُحْدِثُ تأثيرَهُ فيَّ ؛ فقد شعرْتُ للمرةِ الأولى أنَّ المصائبَ التي أحاطَتْ بي قد بدأت تتبدَّد . وعندَما صَعَدْتُ إلى غرفتي الواسعةِ التي يتخلَّلُها الهواء شعرْتُ أنَّ ذلك الجوَّ يَطْرُدُ مخاوِفي وشكّي في نفسي ويُلْقِي على الماضي ظِلاً يُخْفِيهِ عني . وقد جلَسْتُ أستذكر دروسي بمنتهى الجِدّ ، حتى موْعِدِ العشاء . وعندَما هبَطْتُ لتناوُلِ طعامِ العشاء كان يلابسُني شعورٌ عميقٌ بأنني لا بُدَّ أن أصبحَ قريباً في مستوى التلاميذِ الآخرين .

وَجَدْتُ آغنيس في انتظار أبيها الذي تأخَّرَ في مَكْتَبِهِ . وتلقَّتْني بابتسامَتِها العَذْبَةِ وسألَتْني عن أخبارِ المدرَسة ، فأجبْتُها بأنَّني لم آلَفْها بَعْدُ ، ولكنني سأكونُ سعيداً فيها بالتأكيد . وقلت :

— « وأنتِ ألَمْ تذهبي قطّ إلى المدرسة ؟ »

— « بالعكس ، أنا في المدرسة كلَّ يوم ! »

— « أتريدينَ أن تقولي إنكِ تتعلَّمينَ هنا ؟ »

— « إنَّ والدي لا يستطيعُ أن يبتعِدَ عني ! إنه لا يستغني عن رَبَّةِ بيتِهِ ! »

— « إنَّهُ يُحِبُّكِ كثيراً ، على ما يبدو ؟! »

— « أجل .. كثيراً .. لقد تُوُفِّيَتْ والدتي حالما وَضَعَتْني ، فأنا لا أعرِفُ منها سوى صورتِها المعلَّقَةِ في الطَبَقَةِ الأرضية .. لقد رأيتُكَ أمسِ تنظرُ إليها .. هل عرَفْتَها ؟ »

— « نعم .. إنها تُشبهُكِ تماماً ! . »

— « هذا رأيُ والدي أيضاً .. ها هو مُقْبِلٌ ! »

وأضاء وَجْهُها بالفرحة ؛ وجَرَتْ نحوَ والدِها تستقبلُهُ ، وعادا معاً وكلٌّ منهما يُمْسِكُ بيَدِ الآخر . وسلَّم عليَّ الأبُ بحرارة ؛ وقال لي إنني سأكونُ في غايةِ السعادة عندَ الدكتور سترونغ ، الذي هُوَ في الواقع من خِيرَةِ الرجال .

بعد الشاي أتيتُ بكتُبي ورُحْت أقرأ . فألْقَتْ آغنيس نظرةً عليها ، وأخذَتْ تُبَيِّنُ لي أصلَحَ طريقة للتَّفَهُّمِ والاستيعاب . وقد شعَرْتُ أنَّها مُتَفَقِّهَةٌ أكثرَ مما تقولُ

عن نفسها. لقد بدأتْ تؤثّرُ فيّ منذُ تلكَ اللحظةِ بهدوئها ورزانتها وعُمق تفكيرِها.

وبعدَ أنِ استأذنَتْ لتأوي إلى حُجْرة نومها، قال لي السيد ويكفيلد إنّ في إمكاني أن أستغلّ مكتبهُ أثناء وجودهِ في السّهرةِ، لمراجعة الدروس أو المطالعة. فشكرْتُهُ على ذلكَ وهبطْتُ إلى المكتب وأنا أحملُ كتابي.

ورأيتُ نوراً في حُجرةِ أوريا هيب، فقلْتُ أقضي بَعْضَ الوقتِ عندَه. كان يطالعُ أحدَ كتبِ القانون. أخذت كرسياً صغيراً وجلسْتُ إلى جانبهِ أتأمّلُهُ وأستمِعُ إليه. خُيِّلَ إليّ أنّ هذا المخلوق لا يعرفُ كيفَ يبتسم؛ فإذا حاولَ ذلكَ ارتسمَ خطّانِ طُوْليّانِ على وَجْههِ دُوْنَ أن يُرافقَهُما أيُّ تعبير. وإذا كانَ الناسُ يَطْرفونَ ويَغْمزونَ بأعينهم فهوَ يفعلُ كلّ ذلكَ بأنفهِ الذي يتحرّكُ جانباهُ ويرتعشانِ بشكلٍ غريب. وعندما كان يُريدُ أن يُعبّرَ عن سُرُورِهِ كان جسَدُهُ يتلوّى كالأفعى. عرَفْتُ منهُ أنّ أباهُ كانَ حفّارَ قبورٍ وأنّ السيد ويكفيلد أخَذَ على عاتقِهِ، منذُ أربعِ سنواتٍ، أن يُعلّمَهُ القانونَ؛ وأنهُ يسكُنُ وأمّهُ في منزلٍ متواضعٍ.

في اليوم التالي استطعْتُ في المدرسة أن أنتصرَ على خجلي، وازداد الوضعُ تحسُّناً في الأيام التالية؛ فلم يَمْضِ عليَّ أسبوعانِ حتى اندمَجْتُ مع زملائي، وشعرْتُ أنني في غايةِ السعادةِ بينهم. على أنني كنتُ لا أُحْسِنُ أيَّ لُعْبةٍ من الألعاب؛ كما كنت متأخراً في الدروس عن زملائي. ولكنني كنتُ أحسُّ بأنني سألحَقُ بهم في كلّ شيء. وهكذا أقبلْتُ بجدٍّ على الدَّرْس وفتَحْتُ عيني في الملعب.

والحقُّ أنّ مدرسة الدكتور سْترونغ كانت ممتازةً؛ وكان الفَرْقُ بينها وبين مدرسةِ السيد كريكل كالفَرْقِ بين الخير والشرّ. كانت تُدارُ بكثيرٍ من النظامِ والجدّيّة. وكانَ المُشْرِفُوْنَ عليها يَعْتمدونَ على شرَفِ التلاميذِ وصدقِهِم، ما لم يُثْبِتِ الواحدُ منهم عكسَ ما يُرْجَى منه. وكانت هذهِ الثقةُ تؤدّي إلى أفضلِ النتائج. لقد كنا نشعُرُ جميعاً أننا نشترِكُ في إدارة هذهِ المؤسسةِ وأن على عاتقِنا تَقَعُ مسؤوليّةُ المحافظةِ على سُمعتِها وكرامتها. وهكذا كنا جميعاً متعلّقِينَ بها إلى أقصى الحدود؛ ولم أرَ تلميذاً واحداً يَشُذُّ عن هذا الخط.

وكان تلامذةُ هذهِ المدرسةِ مشهورينَ في المدينةِ بسلامةِ الخُلُقِ وحُسْنِ التصرف. أما الدكتور سترونغ فقد كان محبوباً إلى أبعد حدٍّ عند التلامذة؛ وكان يستحقُّ

ذلك بالفعل ، لأنه إنسانٌ رائعٌ حقاً . كان يعاملُ زوجتَهُ برقّةٍ وحنانٍ كأنّها ابنتُهُ . وكنتُ كثيراً ما أراقبُهما وهما يتمشّيان في الحديقة ، فيحدّثُها عن مشروعِهِ الكبيرِ الذي يَشْغَلُ جزءاً كبيراً من حياتِهِ وتفكيره .

والمشروعُ الكبير هو « قاموس الجذور اليونانية » . وكانت جيوبُ الدكتور مملوءةً بالأوراق بصورةٍ مستمرّة .

وقد أعجبَتْ بي السيدةُ سترونغ من يوم أن قدّمَني إليها السيد ويكفيلد . وكانت تحبّ آغنيس وتَزُورُها في المنزل .

١٠. لقاء جديد مع ميكوبر

كنتُ أكتبُ باستمرار إلى بيغوتي . وأحدّثُها عن أوضاعي . وقد أرسلتُ إليها نصفَ الجنيه ، وأخبرتُها بقصة صاحب الحمار الذي سَرَقَ حقيبتي مع نصفِ الجنيه ، مما أثارها .

وقد أطلَعَتْني ، هيَ ، على حَدَثٍ أثّر فيّ أعمقَ التأثير ، وهو أن أثاثَ منزلِنا قد بيعَ والبيت أصبح مهجوراً ؛ أما الشقيقان مردستون فقد رحلا .

وكنت أتحدّثُ إليها عن عمّتي وَطِيبَتِها . ولكنها

كانت تتصوّرُها على نحوٍ منفّر .. غيرَ أنّها بدأت تحترِمُها وإنْ ظلّتْ تخشاها . وقد طلبتْ مني أن أنقُلَ إليها تحياتِها .

أما السيد ديك فقد كانَ يأتي لزيارتي بعدَ ظهرِ كلّ أربعاء ويَرْحَلُ في صباحِ اليومِ التالي . وقد عرّفْتُهُ إلى زملائي الذين أحبّوه كثيراً ، لأنّهُ كان يُسَلّيهم بمهارتِهِ في صُنْعِ مختلِفِ الأشياء من أجل اللّعِب . كما أنه قُدّمَ إلى الدكتور سترونغ ، الذي أصبحَ كثيراً ما يتمشّى معَهُ ويقرأ له مقاطعَ من قاموسه .

وكانت عمّتي ، في المدّة الأولى ، تأتي لزيارتي في الأوقات التي لا أتوقّعُ فيها مَجيئَها . ولكنّها في كلّ مرةٍ كانت تراني مُنْشَغِلاً بالأعمال الدراسية ، فكفّتْ عن الزياراتِ المفاجِئة ، مما دلّني على أنها كانت تريدُ أن تتأكّدَ من حُسْنِ سلوكي . وكنتُ ، أنا ، أذهبُ إلى دوفر كلّ شهر ، لأقضيَ يومَ الأحد مع عمّتي والسيد ديك .

وذات صباحٍ ، بينما كنت أرافقُ السيد ديك من الفندقِ إلى العربة التي سيركبُها إلى دوفر ، التقيتُ أوريا هيب في الشارع ؛ فذكّرَني بأنني وَعَدْتُهُ بأن أزورَهُ في منزله « المتواضع » ، حسب تعبيره . فذهبتُ لزيارتِهِ ، بعد أن استأذنتُ في ذلك السيدَ ويكفيلد .

وقد أمطرَني هو وأمُّهُ بالثناء والتعظيم ، وتباريا في

«التواضع» ، فلم أدرِ أيّهما كانَ أكثرَ تواضعاً . ولو كنتُ أكبرَ سناً وأقلَّ سذاجةً لرأيتُ ، في هذا الغلو في التواضع والإطناب بمزاياي ، وسيلةً لتجريدي من كل حذَرٍ والحصولِ مني على ما يريدانِ من معلومات . وكانا يحومانِ حولَ موضوعٍ معيَّن ، لا يفقدُ أحدُهما خيطَهُ حتى يتناولَهُ الآخَر . وبمهارةٍ استغلاَّ بساطتي فتحدَّثْتُ إليهما عن نفسي وعن السيد ويكفيلد وآغنيس . غيرَ أنني لم أتطرَّقْ بكلمة إلى فترةِ خدمتي لمردستون وغرينباي .

كنتُ قد ابتدأتُ أشعرُ بالضيق ، فأرَدْتُ أن أضعَ حدّاً لهذه الزيارة . وفي تلك اللحظةِ مرَّ أمامَ الباب (الذي كان مفتوحاً لتهويةِ الشقّةِ الكائنةِ في الطبقةِ الأرضية) شخصٌ ما لبثَ أن عاد على أعقابِه ، وصاحَ وهو ينظرُ إلى داخلِ الحجرة : «كوبرفيلد ! أهذا معقول ؟؟!»

كان ذلكَ الشخصُ هو السيد ميكوبر بنظارتِه الخالية من الذراعين ، بعصاه ، بياقتِه المنشّاة ، بأناقتِه ، بلُطفه المترفــع .. لم يتغيَّرْ فيه شيء . ورغم أنــني تضايقتُ جداً لأنه رآني عند هيب فقد أقبلتُ عليه أحيِّيْه بحرارة وأسألُهُ عن حالِه وحال زوجه وأبنائه . وقد عرّفتُهُ إلى هيب ووالدته . فراح يتحدَّثُ ويتحدَّث ،

ملمحاً إلى الفترة التي قضيتُها عند مردستون وغرينباي ، مما غاظني أشدَّ الغيظ . ومن ثمَّ دعاني إلى النُّزُل الذي يبيتُ فيه وأُسرته . ثم تركني مع زوجتِه ونزَلَ إلى المقهى ليقرأَ الصحف .

وراحت السيدة ميكوبر تحدّثُني عن زوجها ، وكيفَ أن فرْعَ أسرتها في بلايموث لم يستقبلْهُ الاستقبالَ اللائق . وكيف أنه جرّبَ مواهبَهُ الكبيرةَ في تجـارة الفحم فلم يُفْلحْ ، فجاء إلى هنا بحثاً عن الثروة ، على اعتبار أن مدينةً تضمُّ كاتدرائيةً عظيمةً لا بُدَّ أن تكونَ فيهـا فُرَصٌ كثيرةٌ للعثورِ على الحظِّ السعيد .

بعدَ أيامٍ رأيتُ من النافذة ميكوبر وهيب يسيرانِ معاً وذراعاهُما متشابكتانِ ، ممـا أدهشَني وأقلقَني . وعرفتُ أن ميكوبر زارَ هيب في منزلِه ، وشرِبَ عندَهُ . ثم زرْتُه في النُّزلِ فكانَ في غاية الابتهاجِ والمرح . ولكنّي فوجئت عندما تلقّيْتُ ، في صباحِ اليوم التالي ، خطاباً من ميكوبر ، مؤرخاً في الساعةِ التاسعةِ من اليومِ السابقِ ، أي بعد افتراقنا بربعِ ساعةٍ ، يقول فيه إنه لا يملكُ أجرَ النُّزُلِ الذي مكَثَ فيه خمسةَ عشَرَ يوماً ، وإنه كتَبَ ورقةً بهذا الدَّيْنِ الذي لا يُمكنُهُ وفاؤه . ووَضعَ إمضاءَهُ تحت «البائس المنبوذ» ، راجياً أن يكون مثَلُهُ درساً لي

في الحياة .

ولقد تألمتُ بالغَ الألم بعد أن قرأتُ تلكَ الرسالةَ التي تمزِّقُ القلبَ . وسُرْعانَ ما توجَّهْتُ إلى الفندقِ الصغيرِ لمؤاساةِ صديقي . وكم كان دَهَشي عظيماً عندما رأيتُهما في العَرَبةِ المتَّجهةِ إلى لندن . كانا في حالةِ مَرَحٍ ، وكانا يأكلانِ الجَوْزَ ، وفي جيب السيد ميكوبر زجاجةُ خمرٍ كبيرةٌ يَظْهَرُ نصفُها خارجَ الجيب . ولكنَّهما لم يرَياني ، فسُرِرْتُ لذلك وعُدْتُ إلى مدرستي .

١١. انتهاء مرحلة الدراسة الأولى

لم أعُدْ أدري أكنتُ حزيناً أمْ فرِحاً يَوْمَ كان عليَّ أن أودِّعَ الدكتور سترونغ ، بَعْدَ أن أنهَيْتُ دراستي ؛ فلقد كنتُ سعيداً في مَعْهدِه ، وكنتُ متعلِّقاً به ، هو بالذات ؛ ثم إني كنتُ بارزاً في عالمي ذاك الصغيرِ . ولكنَّ فكرةَ كوني قد أصبَحْتُ شاباً حراً في تصرُّفاته ، يَطْمَحُ إلى احتلالِ المراكزِ المرموقةِ ويستمتعُ بالحياة ، كانَ لها تأثيرٌ عميقٌ في نفسي .

ولقد ناقَشَتْ عمّتي معي ، مرّاتٍ متعددةً ، موضوعَ اختيارِ المهنةِ التي تناسِبُني ؛ ومَضَى نحوُ سنةٍ على الأقلِّ

والسؤالُ نفسهُ يتردَّدُ : « ما هوَ ميلي الطبيعي ! » ولكنْ في الحقيقةِ أنني لم أكُنْ أعرِفُ لنفسي ميلاً مُعيَّناً .

وكانت عمّتي ، على أثرِ انتهائي ، قد قالَتْ لي : « بما أنَّنا لم نَبُتَّ بعدُ المسألةَ الكبرى ، وأنَّ علينا ألاّ نسيرَ في الطريق الخاطىء ففي اعتقادي أنه يَحْسُنُ بنا أن نتنفَّسَ بَعْضَ الوقت . وفي الانتظار حاولْ أن تواجِهِ المسألةَ من زاويةٍ جديدة ، لا أنْ تفكِّرَ فيها تفكيرَ التلميذ ! »

قلت : « سأحاولُ ، يا عمّتي ! »

قالت : « إسْمَعْ .. عندي فكرةٌ .. لعلَّ شيئاً من التغيير ورؤيةِ الحياة من شأنِه أن يساعدَكَ على تركيز أفكارِكَ والحكمِ بالتالي حُكماً صائباً : ما قولُكَ برحلةٍ قصيرةٍ تقومُ بها مَثَلاً إلى منطقتِكَ الأصليةِ لترَى تلكَ المرأةَ التي لا أذكرُ اسمَها لغرابته ؟! »

في الحقيقةِ أن عمّتي لم تَغْفِرْ قطُّ لـ« بيغوتي » أن تحمِلَ مثلَ هذا الاسم .

لقد تركَتْني أسافرُ بمفردي ، لكي أعتمدَ على نفسي ؛ وزوَّدَتْني بمبلغٍ محترَمٍ وحقيبةٍ كبيرةٍ ملأَى بالملابسِ الجيِّدة ، وودَّعَتْني ببعضِ النصائحِ وكثيرٍ من القُبَل . ووعَدْتُها بأن أكتبَ إليها ثلاثَ مرّاتٍ في الأسبوع ، لأُطلِعَها على كلِّ ما يَحْدُثُ لي .

ذَهَبْتُ أولاً إلى «كنتربري» لأُوَدِّع آغنيس والسيد ويكفيلد والدكتور سترونغ، الرَّجُلَ الطيب. ومن هناك مَضَيْتُ إلى لندن حيثُ اجتمعتُ بزميلي القديمِ ستيرفورث، الذي أصبحَ طالباً في جامعة أوكسفورد. ولما كنتُ في طريقي إلى يارموث لرؤيةِ مربيّتي المخلصة بيغوتي، فقد دَعَوْتُ صديقي ستيرفورث إلى مُرافقتي.

وفي نهايةِ الرّحلةِ عاد صديقي إلى بلدِهِ وتوجّهْتُ أنا إلى «لنكولزاين»، حيث كانت تنتظرُني عمّتي آتيةً من دوفر. وكان لقاءٌ حارٌ، كانت فيه عمّتي تعانقني وتبكي، وتتمنّى لو كانت أمي المسكينةُ موجودةً لتراني وقد أصبحتُ رجلاً يتمتعُ بشخصيةٍ جذابة.

وسألتني عمّتي:

ـ «قل، يا تروت، هل فكّرْتَ في اقتراحي بأن تكونَ مدّعياً عاماً؟»

ـ «أجَـلْ، فكّرْت كثيراً، يا عمّتي العزيزة! وقد تحدّثْتُ في هذا الشأنِ مع ستيرفورث.. إن هذا الحلّ يُعجبُني إلى أقصى حد!»

ـ «أنا سعيدةٌ بذلك!»

ـ «ولكنَّ هناكَ عقبَةً، يا عمّتي!»

ـ «وما هيَ، يا تروت؟»

ـ «ذلك أن هذه الهيئةَ محدودةُ العَدَد، وقَبُولُ فَرْدٍ فيها يكلّفُ كثيراً!»

ـ «إنّ التكاليفَ تبلُغُ بالضَّبط ألفَ جنيه!»

ـ «ولكنَّ هذا مبلغٌ ضخم، وأنتِ قد تكبّدْتِ حتى الآن مبالغَ باهظةً على تعليمي.. وهناك فروعٌ أخرى لا تكلّفُ شيئاً، بالإضافة إلى أنَّ فُرَصَ العمل فيها متوفّرَةٌ.. ألا يَحْسُنُ بنا أن نفكّرَ مَليّاً قبلَ الإقدام على مثلِ هذا الأمر؟ هل أنتِ مستعدّةٌ لِبَذْل تَضْحياتٍ جديدة؟ ثمّ ألا ينبغي عليَّ، أنا، أن أُجنّبَكِ هذه الأعباءَ الجديدة؟ فكّري قبلَ أن تَتَّخِذِي القرارَ النهائيَّ!»

ـ «تروت، إن هدفي في الحياة هو أن أجعَلَ منكَ رَجُلاً فاضلاً حَصِيفاً وأنْ أملأَ حياتَكَ بالسَّعادَةِ والبَهجة.. هذا كلُّ ما أتمنّاه.. و«ديك» من رأيي.»

وصمتَتْ قليلاً ثم أخذَتْ يدي بينَ يدَيْها وقالت:

ـ «تروت، إنّهُ من غير المجدي أن يَذْكُرَ الإنسانُ الماضيَ إنْ لم يكن في هذا الماضي ما يُفيد في الحاضر. لعلّهُ كانَ عليَّ أن أعامِلَ أمّكَ، تلكَ الطفلةَ المسكينةَ، معاملةً أفضلَ رَغْم صَدْمتي بأختِكَ بتسي تروتوود. ويَلُوحُ لي أنَّ ذلكَ قد مرَّ في خاطري يَوْمَ أن جئتَني طفلاً صغيراً هائماً، يَكْسُوكَ الغبارُ ويكادُ يَقْتُلُكَ

التعبُ من طُوْلِ ما سِرْتَ على قَدَمَيْكَ الصغيرتين .
ومن تلك اللحظةِ حتى اليومِ كنتَ عند حُسْنِ ظني بك ، وكنتَ على الدوام مَصْدَرَ اعتزازي وراحتي ؛ فلا أحدَ غيرَكَ إذَنْ له حقٌّ في ثروتي ، وأنتَ ولدي بالتبنّي . ولستُ أطلب منكَ سوى أن تكون لي ابناً محباً وأن تتحمّلَ نَزَواتي وغرابةَ أطواري ، وبذلك تكونُ قد مَنَحْتَ هذه المرأةَ العجوزَ ، التي لم تَحْصلْ في شبابها على ما ينبغي من السعادةِ والراحةِ ، أضعافَ ما قدَّمَتْهُ هي لك . فلا تَعُدْ إذَنْ ، يا تروت ، إلى هذه المسألة مرّةً أخرى !.. غداً ، بعد الفطورِ سنَذْهب معاً إلى مجلسِ القضاةِ . »

في صباح اليوم التالي توجّهْنا إلى المجلس ، وقصدْنا إلى مكاتب السيدين سبنلو وجوركنز . واستقبلَنا السيد سبنلو ، وهو رجلٌ قصيرُ القامةِ أشقرُ الشعرِ بالغُ الأناقة ، ذو سالِفَيْنِ مجعَّدَيْن بعناية فائقة .

واتفقنا على أن أبدأ شَهْرَ التجربة متى أشاء ، ثم تُرْسَلُ الاتفاقية إلى عمّتي لتوقيعها ، دونَ أن تتحمّلَ عناءَ السفرِ إلى لندن . أما التكاليفُ فقيمتُها ألفُ جنيه بما فيها التسجيل .

ولما عُدْنا إلى الفندق تحدّثْنا طويلاً عن خِطَطِ المستقبل . وطلبتُ إلى عمتي أن تَعُوْدَ إلى منزلها ولا تقلَقَ عليّ ، ففي إمكاني تدبيرُ شؤوني بنفسي ؛ ذلك أنني كنتُ أعلمُ أنها

تتضايقُ من لندن ، تتضايقُ من أنواع الطعام ، وتخشى الحرائقَ واللصوص . قالت :

– « أوَتَظُنُّ أنني قَضَيْتُ ثمانيةَ أيامٍ عبثاً في لندن ؟.. لقد وجَدْتُ لك شقةً صغيرةً مفروشةً في « أدلفي » تناسبُكَ تماماً ! »

وبَعْدَ هذه المقدّمَةِ أخرجَتْ من جَيْبها إعلاناً عن تلكَ الشقة ، قَصَّتْهُ بعنايةٍ من إحدى الصُّحُفِ اليوميّة . وذهبْنا لرؤيةِ الشقة ؛ فوجَدْنا على الباب لافتةً تدعو إلى الاتصالِ بالسيدة كروب . فقصدنا إليها فصَعَدَتْ بنا إلى الشقة ، التي كانت في الطبقة العليا . وقد أعجبَتْني الشقةُ كثيراً وشَعَرْتُ بسعادةٍ كبرى . كانَتْ مؤلّفَةً من حُجْرةٍ للجلوسِ وبَهْوٍ وحُجْرةِ نوم ؛ وكانت تُطِلُّ على النهر مباشرةً . وانسحبَتْ عمتي والسيدة كروب للاتفاقِ على الإيجارِ وتحريرِ العَقْد ؛ ثم عادَتا وقد تمّ كلُّ شيء .

١٢. الآنسة دورا

أليس جميلاً أن يكونَ لي بيتٌ مستقلٌ ، أُقْفِلُ بابَهُ عليَّ فأشعرُ بالراحةِ والاطمئنان ، وأحملُ مفتاحَهُ

في جيبي إذا خرجتُ ، مطمئناً إلى أنَّ لي بيتاً خاصاً
لا ينازعني أحدٌ فيه ؟

لم يمضِ عليَّ يومان حتى شعرتُ كأنني أسكنُ
هذهِ الشقّة منذُ سنين . وفي أثناء خروجي ذاتَ صباحٍ
تلقّيتُ رقعةً فيها هذه الكلمات :

« عزيزي تروتوود . أنا عند وكيل والدي السيد
ووتربروك ، في إيليبلاس بهولبورن . هل تستطيعُ أن تأتيَ
لرؤيتي اليومَ ؟ سأكونُ في انتظاركَ في أيِّ ساعةٍ تحدِّدُها .
لك دائماً ...

آغنيس »

ذهبتُ حوالى الرابعةِ إلى منزلِ رجلِ الأعمال الذي
يتعاملُ معهُ السيد ويكفيلد ، فوجدتُ أن الطبقةَ
الأولى تتمُّ فيها الأعمالُ العاديةُ ، أما الأعمالُ الهامةُ ،
لزبائن السيد ووتربروك الكُثُر ، فقد خُصِّصَتْ لها الطبقةُ
التي فوقها . وأُدخِلتُ إلى بهوٍ جميلٍ كانت تجلسُ فيه
آغنيس وأمامها خيوطٌ تنسجُ منها كيساً للنقود . لقد كنتُ
أدعوها دائماً بملاكي الطيِّب .. إنها رائعة حقاً بعينيها
الجميلتين المؤنستين . غير أني رأيت ظلاً من الكآبة
على ابتساماتِها الحلوةِ وفي نظراتِها الطيّبة .

وسألتني إن كنتُ قد رأيتُ أوريا هيب . قلت :

— « كلا ! .. أهو هنا في لندن ؟ »

— « إنَّه يأتي كلَّ يوم إلى الطابق الأرضيّ من هذا
المنزل .. عندما وصلتُ إلى لندن كان قد مضى على وجودِهِ
فيها ثمانيةُ أيام .. أخشى ، يا تروتوود ، أن يكونَ قد
أتى لأمرٍ لا يبشِّرُ بخير ! »

— « يبدو أن هذهِ المسألةَ تُحدِثُ قلقاً في نفسِكِ ..
خبريني ، يا آغنيس ، بِجليّةِ الأمر .. »

فوضعتْ نسيجَها وشبكتْ يديْها وقالت وهي تنظرُ
إليَّ بحزنٍ :

— « يبدو أنه سيُصبحُ شريكاً لوالدي ! »

— « من ؛ أوريا ؟ يا للشقيّ ! هل استطاعَ بنذالاتِهِ
أن يصل إلى هذا الحد؟ فكّري ، يا آغنيس ، بما سينتجُ
عن ذلك ! عليكِ أن تحولي دونَ هذه الشراكةِ منذُ
البداية .. تكلّمي مع والدِكِ ! »

— « أتذكرُ آخرَ لقاءٍ بيننا ؟ بعدَ ذلك بأيامٍ قلائل
كشفَ لي أبي عن ذلك .. كان يحاولُ أن يوهمني أنّهُ
هوَ الذي اختارَ المشاركة .. ولكنّني لاحظتُ أنّهُ فريسةٌ
لصراعٍ داخليّ ، وأنه كان مرغماً على قبولِ المشاركة . »

— « مرغم ! ومَنذا الذي يستطيعُ أن يرغمَه ،
يا آغنيس ؟ »

أجابَتْ بعد تردُّد :

« أوريا ! .. لقد سار حَسَبَ خطةٍ مدروسةٍ بحيثُ أصبحَ والدي لا يستطيعُ الاستغناءَ عنه .. إنه داهِيَةٌ ، فقد عرَفَ نقاطَ الضَّعْفِ عندَ والدي ، وراحَ يدْفَعُهُ فيها ويستغلُّها لمصلحتِهِ .. بل أقولُ لكَ أكثرَ من ذلكَ ، يا تروتوود : إن والدي يخشَى أوريا ! »

وللمرةِ الأولى رأيتُ آغنيس تبكي . وقد رَجَتْني ألاَّ أُظْهِرَ شيئاً لأوريا .

بعد لحظةٍ دخلَتْ علينا السيدة ووتربروك ، ودعَتْني إلى تناوُلِ العشاء في اليومِ التالي . ولما نزلْتُ سألْتُ عن أوريا ، فلم أجدْهُ ، فتركْتُ لهُ بطاقتي .

في مساء اليومِ التالي توجَّهْتُ إلى منزل السيد ووتربروك الذي تعرَّفْتُ به . إنَّهُ رَجُلٌ متوسِّطُ السِّنِّ قصيرُ العُنُقِ لا ينْقُصُهُ سوى أنف أسْوَدَ ليكون تماماً كالببَّغاء .

لم أكن أنا ، المَدْعُوَّ الوحيدَ ، بل كان المدعُوُّوْنَ مجموعــةً من النساء والرجـال ، وفيهم اوريـا هيب ، الذي أقبلَ عليَّ يشكرني على تنازلي في السؤالِ عنهُ ويُغْدِقُ عليَّ المديحَ والثناء . وقد لاحظْتُ أنَّهُ يَتَتَبَّعُني باستمرار ، فلا أوجِّهُ كلمةً إلى آغنيس إلاَّ وتكونُ عيناهُ معي .




لقاء بين « أوريا هيب » و « آغنيس »

كان المَدْعُوُّونَ باردينَ كالثلج. على أنني سُرِرْتُ
بوجود صديقٍ لي بينهم هو تومي ترادلز. ولما لاحظَ
السيد ووتربروك أنني و «ترادلز» صديقان ذكر لي "أنَّهُ
رجلُ قانونٍ بسيط، وأنَّ دَعْوَتَهُ له كانت لإكمال العدد.
وقدَّمْتُ ترادلز إلى آغنيس. ولكنَّهُ اضْطُرَّ إلى
الذَّهاب مبكِّراً لأنه كانَ سيسافرُ في الصباح في رحلةٍ
تَدُوْمُ شهراً كاملاً. لهذا لم أجِدِ الوَقْتَ الكافي لأتحدَّثَ
إليه طويلاً ونستعيدَ ذكرياتنا الماضية؛ غير أننا تبادَلْنا
العناوينَ، واتفقنا على أن نعيدَ صِلاتنا وأن نجتمِعَ لدى
عودتِهِ من السفر.

بقيتُ حتى آخرِ السهرةِ لأستمتعَ بوجود آغنيس التي
كانت ستَرْحَلُ بَعْدَ بضعةِ أيام. ولكنَّ أوريا ظلَّ
يحومُ حولنا، وعندما خرجتُ كان على أعقابي. لم أكنْ
في الحقيقة أحتملُ وجودَهُ، ولكنني تذكَّرْتُ وصية
آغنيس لي، فدَعَوْتُهُ إلى تناوُلِ الشاي في شقَّتي. ولكنني
نَدِمْتُ على ذلك، فإلى جانب ثِقَلِ ظِلِّهِ كان من الوقاحةِ
بحيث أعلَنَ لي، أثناء الحديث، أنَّهُ سيُشَرِّفُ آغنيس
يوماً بطلَبِ يدها.

لم أرَ اوريا هيب بعد ذلك إلا يومَ رحيلِ آغنيس،
إذ ذَهَبْتُ لوَداعها في محطَّة العربات، وكان أوريا ذاهباً

إلى كنتربري على نفس العربة. يا لَلنَّذْل! لقد كنتُ
أعرف أن آغنيس، بسبب حُبِّها الفائقِ لوالدها، كانت
مستعدةً لأيِّ تضحيةٍ في سبيلِه، حتى للقَبُوْل بالزواج
من أوريا. ولكم كانت تعذِّبني هذه الفكرةُ، عندما
أنفردُ في شِقَّتي وتَذْهَبُ بي الأفكارُ في كلِّ اتجاه.

وكرَّتِ الأيَّامُ والأسابيعُ واستَقْرَرْتُ عند السيِّدَيْن
سبنلو وجوركنز. وكانت عمَّتي تَدْفَعُ لي في العامِ ثمانينَ
جُنيهاً وتتكفَّلُ بأجرة الشقةِ وببعضِ المصروفاتِ الأخرى.
وقد دفعَتْ أجرةَ المنزل عن عام كامل.

ودعاني السيد سبنلو يوماً إلى منزلِهِ الريفيِّ في نورووود،
لقضاء عُطلةِ الأسبوع. وقد أخذني مَعَهُ في عرَبتِهِ.
وفي أثناء الطريق أخبرَني أنَّ له ابنةً تخرَّجَتْ من إحدى
المدارسِ الفرنسيةِ، وأنها تقيمُ في نورووود باستمرار.

دارةُ السيد سبنلو رائعةٌ حقاً، تُحيطُ بها حديقةٌ
واسعةُ الأرجاء، فيها الأشجارُ الوارفةُ، والنباتاتُ
المتسلِّقة؛ على أن الفَصْلَ لا يكشفُ عن كل جمالاتِ
الحديقة.

ودخلنا البَهْوَ فطالَعَنا وجه ابنتِهِ دُوْرا.. قالَ «أقدِّمُ
لكَ ابنتي دورا وصديقَتَها!.. السيد كوبرفيلد!»

قال صوتٌ أعرِفُهُ جيداً: «لقد رأيتُ السيد كوبرفيلد

قبل الآن ! »

فالتفتُّ – وكنتُ قبلُ منشغلاً بمصافحة الآنسةِ دورا – فاذا بي وجهاً لوجهٍ أمامَ الآنسة مردستون ! وبَعْدَ أن تغلَّبْتُ على ذهول المفاجأة ، قلت :

– « كيف حالكِ يا آنسة مردستون ؟ أرجو أن تكوني في صحةٍ جيدة ! »

– « صحتي في غايةِ السلامة ! »

– « وكيف حال السيد مردستون ؟ »

– « على ما يُرام .. أشكرُك ! »

وقال السيد سبنلو ، الذي أدهَشَتْه ، على ما يبدو ، معرفتي بالآنسة مردستون :

– « أنا مسرور ، يا كوبرفيلد ، أن تكونَ والآنسةَ مردستون على معرفةٍ قديمة ! »

قالتِ الآنسةُ مردستون بلهجةٍ هادئةٍ ، قاسية :

– « إننا، أنا والسيد كوبرفيلد، نسيبان. لقد عرَفْنا بَعْضَنا قليلاً في الماضي عندما كانَ صغيراً .. ولكنَّ الظروفَ فرَّقَتْنا منذُ ذلك الحين .. لقد تغيَّرَ كثيراً حتى كِدْتُ ألاَّ أعْرِفَه ! »

قلتُ : « إنني لا يمكنُ إلا أنْ أعرِفَها أينما رأيتُها . »

وقال السيد سبنلو :

« إنَّ الآنسة مردستون قد تفَضَّلَتْ بقبول وظيفة – لِتَسْمَحْ لي بهذا التعبير – الصديقةِ المرافقة لابنتي دورا ... إن دورا قد حُرِمَتْ أمَّها ، لسوء الحظ ، فقبِلَتِ الآنسةُ مردستون أن تأخُذَها تحت رعايتها . »

ونظرتُ إلى الآنسة دورا فرأيتُ في تصرُّفاتِها ما يُنبئُ بأنها غيرُ مستعدةٍ لأن تَضَعَ ثقتَها في مرافقتِها وحاميتِها الآنسة مردستون .

وقُرِعَ جَرَسٌ ، فقال السيد سبنلو إنَّهُ الجرَسُ الأوَّلُ للعشاء . وقادني إلى الحجرة التي سأبيتُ فيها . وبدَلَ أن أغيِّرَ ملابسي رُحْتُ أفكِّرُ في الآنسةِ دورا . وأعترِفُ منذُ الآن أنني وَهَبْتُها قلبي من النظرةِ الأولى ، وأصبحَ هدَ[illegible] ، [illegible]ذُ تِلْكَ اللحظةِ ، أن أنالَ يدَها . وانتزعَني من [illegible]ي الجرَسُ الثاني ، فارتديْتُ ملابسي بعجلةٍ ، بدَلَ أن أُعْنَى بترتيبِها في هذه المناسبة .

وترجَّهْتُ إلى غرفةِ المائدة ؛ ولكنَّ الآنسةَ مردستون انتحَتْ بي ناحيةً وقالَتْ لي إنها كانتْ قد كوَّنَتْ عني فكرةً معينةً في صِغَري ، وقد تَكُوْنُ مخطِئةً .. والآنَ قَدْ جمَعَتْنا ظروفٌ خاصةٌ وسط أسرةٍ محترَمَة ، فلا حاجةَ إلى ذِكْرِ الماضي وذلكَ لمصلحةِ كلَيْنا . قلت :

– « لقد أسْرَفْتُما، أنتِ وشقيقُكِ ، يا آنسة مردستون،

في الإساءة إليّ ، وعاملتما أمّي بقسوة ما بعدها قسوة ..
هذا هو رأيي فيكما ، ولن يتغير .. ولكنني أوافق على
اقتراحك كل الموافقة ! »

كلُّ ما أذكره من تلك السهرة هو أن دورا غنّت
طائفة من الأغاني الفرنسية الشجيّة ، مرافقة غناءها
بالضرب على آلة موسيقية تشبه القيثارة . وعندما
جاءت الآنسة مردستون لتأخذها إلى حجرة النوم ،
مدّت إليّ يدها اللطيفة وابتسمت لي بمنتهى العذوبة .

في صباح اليوم التالي التقيتها في الحديقة ، قالت :

— « خبّرني هل أنت على صلة بالآنسة مردستون ؟ »

قلت : « كلا ! »

قالت وهي تمطّ شفتيها قرفاً واشمئزازاً :

— « كم هي مزعجة! لست أدري ما الذي حدا بوالدي
أن يأتيني بشخص لا يمكن احتماله كيما يرافقني !
ثم ما حاجتي إلى الحماية ؟ إن « جيب » أصلح منها لهذا
الغرض .. أليس كذلك يا جيب ؟ »

كان هذا اسم كلبها الصغير المدلّل .. وقد اكتفى
الكلب بإغماض عينيه وهي تطبع قبلة على رأسه
اللطيف . ثم استرسلت قائلة :

— « بابا يسميها صديقتي المؤتمنة .. ولكنّ هذا ليس

صحيحاً على الإطلاق .. أليس كذلك يا جيب !
ليس في نيتنا أن نضع ثقتنا في أناس دائمي التذمّر ..
أليس كذلك يا جيب ؟ إننا سنضعها حيث نريد ، ونختار
أصدقاءنا بأنفسنا ، دون حاجة إلى من يختارهم لنا من
بعيد .. أليس كذلك يا جيب ؟ »

وكان « جيب » يجيب على عباراتها بهمهمة مبهمة
أشبه بصوت إبريق شاي فوق النار . ومضت تقول :

— « إنّه لمن سوء الحظ ألا تكون لنا أمّ حنون فنضطر
إلى أن تكون على أعقابنا باستمرار امرأة سوداوية المزاج
مضجرة كالآنسة مردستون .. أليس كذلك يا جيب ؟
ولكن لا تهتمّ للأمر ، يا جيب ، فنحن لن نوليها ثقتنا ،
وسنستمتع بوقتنا رغم أنفها ، وسنجعلها تتميّز غيظاً ..
هذا كلّ ما نستطيع أن نفعله بها .. أليس كذلك يا جيب ؟ »

لقد وجدت هذا الحديث في غاية الروعة والظرف .

وما لبثت أن تبعتنا الآنسة مردستون وقدّمت خدّها ،
الأجعد المكسوّ بمسحوق الأرز ، إلى دورا لتقبّله .
ومن ثمّ أخذت ذراعها وتوجّهنا إلى غرفة الطعام ،
كأننا نسير في جنازة أحد العسكريين .

بعد الفطور ذهبنا إلى الكنيسة ، فجلست الآنسة
مردستون بيني وبين دورا ، وانقضى اليوم بهدوء ؛ وفي

الصباح الباكرِ ركِبْنا العربةَ أنا والسيد سبنلو لنعودَ إلى لندن ، وكانتْ دورا في وَداعِنا . ومنذُ ذلكَ اليومِ أصبحْتُ أتأنَّقُ في اختيارِ ملابسي ورَبَطاتِ عنقي .

١٣. وليمة في منزلي

انقضى شهرٌ على السَّهرةِ التي قَضَيْناها عندَ السيد وتربروك وعلمتُ أن ترادلز قد عادَ من السفر ، فذهبت أُفتش عن منزِلِهِ . وَصَلْتُ إلى الشارعِ الذي يَسْكُنُ فيه ، بالقرب من مدرسة الطبّ البيطري ، فوَجَدْتُ الناسَ هناك لا يتورَّعُون عن إلقاء الأقذار والنفاياتِ في وَسَطَ الشارع ، وتمنَّيْتُ لصديقي أنَ يكونَ في مكان آخر . وعندما وَصَلْتُ إلى المنزلِ تذكَّرْتُ أيامي عند السيد والسيدة ميكوبر . على أن منزلَهُ يختلفُ عن باقي المنازل بآثارِ أناقةٍ قديمةٍ عفَّى علَيْها الزمن . كان مكوَّناً من طابقٍ واحدٍ فوقَ الأرضي . وقد تلقَّاني ترادلز بحرارة وأدخلني إلى حجرةٍ فقيرةِ الأثاثِ تَدِبُّ فيها الفَوْضَى : إنه ترادلز القديم ، لم يتغيَّرْ !

وعُدْنا نتبادَلُ التحيّات . قال ترادلز :

— « عندما رأيتُكَ في منزل ووتربروك شعرْتُ بأنَّكَ

ما زلتَ الانسانَ الطيِّبَ الذي عرَفْتُه ، ولهذا أعطيتُكَ عنواني هنا ، لا في المكتبِ حيْثُ أدرُس . »

— « إذَنْ عندكَ مكتبٌ ! »

— « نحن أربعة ، ويكلِّفني ذلكَ شِلنيَنْ في الأسبوع .. إنني أحاوِلُ أن أشقَّ طريقي . »

— « قال لي ووتربروك إنَّكَ تستعدُّ لتكونَ محامياً ؟ »

— « نعم ولكنَّ ذلك يكلِّف مئة جنيه .. وهذا مبلغٌ لا قِبلَ لي به ؛ فأنا أنسخُ بعض القضايا ، ولا أكسبُ منها سوى القليل . »

— « وعمُّكَ الذي كان متكفِّلاً بك ؟ »

— « تُوُفِّي ! »

— « ألم يترُكْ لك شيئاً ؟ »

— « خمسين جنيهاً ، وقد نفِدَتْ بعد أن تسجَّلْتُ في الحقوق ! وقد تعرَّفْتُ بناشرٍ يستعدُّ لإخراج موسوعةٍ ، وفي هذه اللحظة أنجزُ له عملاً كلَّفني به . وبفضل العملِ المضني استطَعْتُ أن أجمعَ المئة جنيه . »

وفي أثناء الحديث أخبَرَني بأنه خطَبَ ابنةَ قسٍّ له عَشَرةُ أولاد ؛ غيْرَ أنَّهُ لا يستطيعُ الزواجَ قبلَ مُدَّةٍ طويلةٍ . ثم قال :

— « على أيِّ حال أنا أتدَبَّرُ أمري .. صحيحٌ أنني لا

أكسَبُ كثيراً ، ولكنني لا أصرف كثيراً .. إنني أتناوَلُ وَجَباتي عند سكان الطابقِ الأرضي .. إن السيّد والسيدة ميكوبر شخصان طيبّان ! »

وصِحْتُ :

– « ترادلز ، ماذا تقول ؟ »

فنظَرَ إليّ دَهِشاً .. وقلت :

– « إنني أعرفُهما جيداً ! »

وفي هذه اللحظة قُرِعَ البابُ الخارجي ؛ وعَرَفْتُ طريقة السيد ميكوبر ، فطلَبْتُ من ترادلز أنْ يَدْعُوَه .

في البداية لم يَعْرِفْني السيد ميكوبر ، ولكنه ما إن عَرَفَني حتى صاح :

« يا لها من مفاجأةٍ سارّة تفاجئني بها .. كوبرفيلد صديق شبابي !.. كيف أصدقاؤنا بكنتربري ؟ ..كان آخرُ لقاء لنا هناك ، في ظل الكاتدرائية التي يَحُجّ إليها الناسُ من كلّ صَوْب ... »

وصَعَدَتِ السيدةُ ميكوبر . فلما قدّمني إليها زوجُها بدت وكأنّها قد أصيبَتْ بدُوار ، بحيثُ اضطُرّ ترادلز أن يأتيَها بماء بارد ليُرَطِّبَ به صُدْغَيْها .

وتجاذَبْنا أطرافَ الحديث قرابةَ نصفِ ساعة ثم قمتُ لأذهبَ ، ولكن السيد ميكوبر ألحّ عليّ أن أتناوَلَ الغَداء

على مائدتِهِ . غير أني لَمَحْتُ القَلَقَ في عينَيْ السيدة ميكوبر ، فاعتَذَرْت ؛ ودَعَوْتُهُمْ جميعاً إلى تناوُل العَشاء في منزلي ، وقد حَدَّدْنا مَوْعِداً بعيداً إلى حدٍّ ما نظراً لانشغال ترادلز .

وقد تحدَّث إليّ السيد ميكوبر ، وهو يُوْصِلُني إلى الخارج ، عن ضِيْق ذات يدِهِ ؛ ولكنه أضاف قائلاً إن الأمورَ ستسيرُ على ما يُرامُ في القريب العاجل ، ولكنّ هذا سرٌّ لا يستطيعُ أن يَبُوحَ به في الوقتِ الحاضر .

أعدَدْتُ كُلَّ شيء للوليمة ورتَّبْتُ المائدةَ وجاءَ الاصدقاءُ الثلاثةُ في الموعد . وقلت لميكوبر إنني تركتُ له أمرَ إعدادِ مزيج « البنش* » . كانَ قبلَ لحظاتٍ متجهِّمَ الوَجْهِ بسببِ قطعِ المياهِ عن شقّتِهِ لأنّهُ لم يدفع الاشتراك ، فما إن رأى المشروبات حتى تهلَّلَ وجهُهُ ونسي كلَّ شيء .

واشتركْنا جميعاً في شَيِّ اللحم ، وكنا نضحك كالمجانين .

ثم شربنا البنش ؛ وراحت السيدة ميكوبر تشكو سوءَ حظِّ زوجِها الذي يتمتّع بمواهبَ عظيمة ؛ ولكنّ مواهبَهُ لا تدرُّ عليه شيئاً . وقد بذلَ العديدَ من المحاولات ، فلم يُفلح . إنّ الخطأ في ذلك يقَعُ على عاتقِ المجتمع ،

(*) شراب مسكر .

فلا عَجَبَ إنْ تَحَدى السيد ميكوبر المجتمعَ بعدَ ذلك ،
وسيكونُ هذا التحدي بنشْرِ إعلانٍ في الصُّحُف يَشْرَحُ
فيه السيد ميكوبر مزاياه وقُدْراته ويَعْرِضُ خَدَماتِهِ .
أما تكاليفُ الإعلان فسيحرِّرُ بها سَنَداً يتكفَّل به أهلُ
السيدة ميكوبر أو أيُّ شخصٍ آخر . وقال السيد ميكوبر
إنه على يقينٍ أن الحظَّ لا بُدَّ أن يبسمَ له .

وبينما كانوا خارجينَ في نهاية السهرة ، دسَّ السيد
ميكوبر في يدي ورقةً ، وطلبَ مني أن أقرأها عندما أجدُ
الفرصةَ لذلك . وجرَرْتُ ترادلز من ذراعِهِ ليتخلَّف
عنهما . قلت له :

— « ترادلز ! إن السيد ميكوبر ليستْ لَدَيْه نيّاتٌ
سيئة .. إنه رجلٌ مسكينٌ ؛ ولكنْ حَذَارِ أن تسلِّفَهُ شيئاً ! »

— « وهل عندي ما أُسلِّفُهُ إياه ؟ »

— « أجل : إسمك ! »

وقال ترادلز إنه يخشى أن يكونَ قدِ استغَلَّ اسمَهُ
قبلَ الآن ، فقد سبَقَ له أن كفَلَهُ ؛ ولكنّه أخبرَهُ
فيمابعدُ بأن السَّنَدَ قد دُفِعَ ؛ وهو لا يعرفُ الحقيقةَ بالضبط .

ولما خلَوْتُ إلى نفسي رُحْتُ أقرأ الرسالةَ التي تبدأ
هكذا :

« سيدي .. ولا أجرؤ على أن أقولَ عزيزي كوبرفيلد ! »

إنني أعرف أن السيد ميكوبر يلجأ إلى العباراتِ القانونيةِ
كلّما وقعَ في مأزِق من المآزق . وقد بيَّنَ لي في هذه الرسالةِ
أنَّ جميعَ ما يمتلكُهُ ترادلز مرهونٌ عند صاحب البيت
الذي لم يَدْفَعْ له ميكوبر إجارةَ السَّنة . وقال أيضاً إنَّ
هناك سَنَداً بمبلغ ثلاثة وعشرينَ جنيهاً وأربعةِ شلنات
وتسعةِ بنسات ، والكفيلُ هو تومي ترادلز .

مسكين ترادلز ! لقد بتُّ وأنا في غاية الكَمَدِ من
أجلِهِ ومن أجل ابنةِ القَسِّ التي تنتظرُهُ . ذلك أنني
أعرِفُ أن ميكوبر يستطيعُ أن ينقِذَ نَفْسَهُ ، أما ترادلز
فـلا .

١٤. انباء سيئة

كتبتْ إليَّ بيغوتي أن السيد باركيس في حالة خطرة ؛
فسافرْتُ في الحال إلى يارموث . ولكنَّ السيد باركيس
قضى نَحْبَهُ . وبعدَ المراسم كان على بيغوتي أن تذهبَ
إلى لندن لتصريف بعضِ الأعمال . وعندما أخذتُ مربيتي
الطيبةَ إلى منزلي فوجئتُ بعمّتي ومعها السيد ديك والسيدة
كروب . وكانت عمّتي تجلس على كومةٍ من الحقائبِ
وأمامَها قَفَصُ طيورها ، وقطّتُها على رُكْبَتَيْها . وكانت

تحتسي فنجاناً من الشاي . وأما ديك فكان يقفُ ساهماً
وأمامَه أيضاً عدد من الحقائب .

ورحَّبْتُ بعمّتي وتعانقْنا بحنان وسلَّمْتُ على ديك
بحرارة . وقالت عمّتي لبيغوتي التي كانت مُضْطَرِبَةً :
« كيف أنت ؟ » فقلت لبيغوتي : « بيغوتي ، ألا تذكرينَ
عمّتي ؟ »

فصاحتْ عمّتي

ـ « بالله عليكَ لا تَدْعُ هذهِ المرأةَ بهذا الاسمِ الوحشيِّ
ما دامتْ قد فقَدَتْهُ لدى زواجها ! .. ما اسمُكِ الآن
يا بي ـ حتى لا تلفظ كل الاسم ـ »

قالت بيغوتي وهي تنحني باحترام :

ـ « باركيس ، يا سيدتي ! »

ـ « على هذا ، كيفَ أنت يا باركيس ؟ لعلك بخير ! »

وتناولَتْ بيغوتي يَدَ عمّتي الممدودةَ وعادتْ تنحني
تعظيماً لها .

وصَرَفَتْ عمّتي السيدةَ كروب التي كانت تحاولُ
أن تبقَى بداعي الفُضُول . فعلِمْتُ أنَّ لدى عمّتي شيئاً
خطيراً تريدُ أن تُطْلِعني عليه ، ولا أدلَّ على ذلكَ
من مجيئها المفاجىء وعلى هذه الصورة . وقد لاحظتُ أنها
كانَتْ تُتْبِعُني نَظَراتِها كلما كنتُ منشغلاً عنها ، وأنها

كانت في حالة شديدةٍ من القلق الذي تحاولُ أن تخفيَه
وراء هدوء مُصْطَنَع .

وبَعْدَ أن انتهتْ من احتساء الشاي قالت :

ـ « أتدري لمَ أجلسُ على أمتعتي ؟ »

فنظرتُ إليها ولم أجِبْ . قالت :

ـ « لأنَّهُ لم يعد عندي ما أملكُهُ غيرها : لقد أفلست
يا ولدي ! »

ولو انَّ البيتَ سَقَطَ بنا في النَّهر لما كنتُ أُصِبْتُ
بصدمةٍ أقسى من هذهِ الصَّدْمة ! وعادَتْ تقول :

ـ « أجل ، يا بني ، لقد أفلَسْتُ .. هذا كلُّ ما بقي لي
من حُطامِ الدنيا ، فيما عدا منزلي الصغير ، الذي كلَّفْتُ
جانيت بتأجيره . »

كنتُ متألماً عليها . ولكنَّها ارتمت بين ذراعيَّ وقالت
إنها لم تَحْزَنْ على فَقْد ما فَقَدَتْهُ إلا من أجلي . وما
هيَ إلا لحظةٌ حتى انتصبت وقالت بلهجة المنتصر :

ـ « علينا أن نحتملَ الرزايا بشجاعة ، يا بُنَيَّ . ولا
نَتْرُكَها تَهُولُنا ! دَوْرُنا يجب أن نؤديه إلى آخره ،
يا تروت ، وأن نواجِهَ المصيبة حتى النهاية . »

عندما استعدتُ هدوئي اقترحتُ أن أوصلَ السيد ديك
إلى عند تاجر مصابيحَ لديه حجرةٌ صغيرة للإيجار .

على مائدة العشاء كانتْ عمّتي في مُنتهى الهدوء . وقالت لي :

— « تروت، أنا لا أحبُّ الوجوهَ الجديدةَ في الغالب ، ولكن باركيسك هذه تُعْجِبُني . »

قلت : « إن هذا لمما يُدخلُ السرورَ على قلبي . »

— « إنها تحبُّك كثيراً .. أتدري أنها جاءتني منذُ لحظةٍ ورَجَتْني أن أقبلَ منها جزءاً مما تملكُ ، لأن المالَ الذي معَها يزيدُ عن حاجتها ؟؟ »

كانت عمّتي تقولُ هذا وعيناها فائضتانِ بالدّمع مع التأثّر .

نهضتُ مبكّراً في الصباح ، وتوجّهْتُ إلى همستيد للاجتماع بالسيد سبنلو لعلّهُ يَقْبَلُ بإلغاء عقدي وإعادة الألف جنيه إليّ ، قلت له :

— « يؤسفُني ، يا سيدي، أن أقولَ لكَ إنني تلقّيْتُ أنباء سيئة من عمّتي ! »

— « إن هذا لمما يُحزِنُني ! هل أصيبَتْ بالشّلَلْ ؟ »

— « ليس هناك ما يتعلقُ بالصّحة .. لقد مُنيَتْ ببعض الخسارة .. أو بالأحرى لم يَبْقَ لديها شيء ! »

— « كوبرفيلد ، إنك لتُدْهِشُني ! »

— « لقد تغيّرتِ الأوضاعُ ، يا سيدي ! وقد جئتُ

إليك لأسألَكَ إن كانَ من الممكنِ أن أستعيدَ ما دفعتُهُ لتسجيلي هنا ، بعدَ التنازلِ عن جزءٍ منه ! »

وقد كلفني هذا الكلامُ عناءً كبيراً في الحقيقة .. والبندُ الأخير ، وهو التنازلُ عن جزءٍ من المصاريف ، أضفتُهُ ارتجالاً دون أن يكونَ في ذهني من قبلُ ، وذلك بسببِ التغيّرِ الذي رأيتُهُ يَظْهَرُ على وجه السيد سبنلو .

وأعلَنَ لي السيد سبنلو أنه لو كان وحدَهُ المسؤولَ في هذه القضية لألغَى الاتفاقَ على الفور ، ولكنْ هناكَ السيد جوركنز ، والسيد جوركنز لن يَقْبَلَ بذلك على الاطلاق . وبالطبع رَفَضَ السيد جوركنز . وقد علمتُ أن مُهِمّةَ جوركنز في الشّرِكة هي رفضُ ما لا يريدُ سبنلو الموافقةَ عليه ، وذلك دون إعطاء أيِّ تفسيرٍ لهذا الرفض .

وخرجتُ من مركزِ الدراسةِ ونَفْسِي مملوءةٌ بالتشاؤم . والسببُ أن إفلاسَ عمّتي أصبح هو العقبةَ دون تحقيقِ حُلْمي بالزواج من دورا ، لأنّ والدَها سيعارِضُ ذلك بكل تأكيد .

وفي الطريق صادفتُ آغنيس التي أخبرَتْني أنها ذاهبةٌ لرؤيةِ عمّتي ، فسِرْنا معاً ، وكانت عمّتي ، التي تحبُّها حُباً جماً منذُ زمن بعيد ، قد بعثَتْ إليها برسالةٍ مُقْتَضَبَةٍ

تنبئها فيها بأنها تعرَّضَتْ لنكبةٍ وأنها ستغادرُ دوفر نهائياً ، وستكونُ في لندن . وجاءت آغنيس إلى لندن لتراها ، وكان معها والدُها ، وكذلك أوريا هيب . قلت لها :

« أهما شريكانِ الآن ؟ »

قالت : « نعم ! إنَّ لديهما أعمالاً في لندن ، وقد اغتنمتُ هذه الفرصةَ لآتيَ معهما .. في الحقيقة ، لا أخفي عنك ، يا تروتوود ، أنني أخشى أن أتركَ أبي معه بمُفْرَدِه . »

– « أهو لا يزالُ يمارسُ تأثيرَهُ على السيد ويكفيلد ؟ »

قالت وهي تهزُّ رأسَها بمرارة :

– « إن كلَّ ما في بيتنا قد تغيَّرَ الآن .. إنهما يُقيمان معنا ! »

– « من ؟ »

– « السيد هيب ووالدتُه .. إنهما يَشْغَلانِ حُجْرَتَكَ ! »

واخبرَتْني أنها لم تَعُدْ تستطيعُ أن تخلوَ إلى والدها إلا في النادرِ النادرِ ، إذ أن أوريا لا يتركُهما منفردَيْن لحظةً واحدة ؛ ثم إنها مُضْطَرَّةٌ إلى أن ترافقَ الوالدةَ التي تتحدَّث إليها دَوْماً عن مزايا ابنها . ثم سألَتْني ونحنُ نقتربُ من المنزل إن كنتُ أعرفُ كيف خسرَتْ عمتي مالَها . فلما أجبتُها بالنَّفْي شعَرْتُ بيدها ترتجفُ على ذراعي .

وَجَدْنا عمتي وحدها ، ولكنَّها كانت في حالةِ اضطراب ، لأنها تشاجرَتْ مع السيدة كروب ، فطرَدَتْها . وما لبثَتْ أنِ استعادَتْ هُدوءَها ورحَّبَتْ بآغنيس . وقد أخبرْتُها بما حدَثَ لي مع السيد سبنلو ، فقالتْ لي إنه ما كانَ عليَّ أن أطلُبَ إليه هذا الطلب ، لأنهُ غيرُ معقول ؛ وإن كنت قد قمتُ بهذه الخطوة فلأني شابٌّ طيِّبٌ شريف ، وهي فخورةٌ بي . ثم نظرَتْ إلينا أنا وآغنيس وقالت :

« والآنلنَنْظُرْ في وَضْع بتسي تروتوود ! »

فرأيتُ وجه آغنيس وقد كساهُ الشُّحوب .

وراحَتْ عمَّتي تعرِض قصَّتَها بطريقةٍ فلسفيَّة قائلةً إن بتسي تروتوود كانتْ لديها أموالٌ ، وهذه الأموالُ يُشغِّلها رجلُ أعمالها .. ثم أُشيرَ عليها أن تَستَرْهِنَ بها ممتلكات. ففعلتْ وجنَتْ ربحاً كبيراً .. ولكنَّ المالَ أُعيدَ وفُكَّ الرَّهْنُ ، فعادت إلى تشغيلِه عندَ رَجُل أعمالها ، فخسرَتْ جزءاً في المناجم ، ثم خسرَتِ الباقيَ في أحد البنوك .. وبتسي لم تَعُدْ تملِكُ فَلْساً .. وأفضلُ ما تفعلُهُ الآن هو ان لا تعودَ إلى هذا الحديثِ مرةً أخرى .

وسألتها آغنيس التي كانت شديدةَ الاصفرار في البداية ثم بدأت تستعيدُ لونَها شيئاً فشيئاً :

« أيتها العزيزة ، الآنسة تروتوود ، هل هذهِ هيَ

القصةُ بكاملها ؟ »

قالت : « أعتقدُ أن هذا كافٍ .. لو بقيَ هناكَ مالٌ برَسْمِ الخسارة لما انتهتِ القصة .. ولكنْ لم يَعُدْ في اليدِ مالٌ ، إذن فالقصةُ تنتهي عندَ هذا الحدّ ! »

لعلَّ آغنيس كانت تخشى أن يكون والدها مورّطاً في هذه القضية ، لهذا كانت في غاية الاكتئاب .

وعادت عمّتي تقولُ إنَّ منزلها يمكنُ أن يَدِرَّ عليها سبعينَ جنيهاً في العام . أما ديك فدخلُهُ ألفُ جنيه سنوياً . ولكنَّ هذا المبلغَ لن يُمَسَّ لأنَّهُ مخصَّصٌ لاحتياجات ديك وحَسْبُ . وقالت متسائلةً :

« فماذا سنفعلُ أنا وتروت كيما نتدبَّر أمرَنا بالجنيهات السبعين ؟ ماذا تَرَيْن يا آغنيس ؟ »

فردَدْتُ أنا بأنَّ عليَّ أن أعمَلَ . فقالَتْ عمَّتي إنّها لا تريدُ رأساً مكسوراً في الأسرة ، وعلى هذا فيجبُ أن أواصلَ الدرسَ لأصبحَ وكيل نيابة .

وســألتني آغنيس إن كان لديَّ وقتُ فراغٍ ، لأن الدكتور سترونغ أحيلَ على التقاعد وجاء إلى لندن، وقد طَلَبَ إلى والدي أن يَجِدَ له سكرتيراً، ولا بُدَّ أنه سيكونُ سعيداً بأن يتَّخِذَ تلميذَهُ القديمَ سكرتيراً له ، وصِحْتُ فرحاً :

« إنكِ على الدوام مَلاكي الطيِّب ، أيتها العزيزة آغنيس ! »

ورَدَّتْ عليَّ آغنيس قائلةً بأنه يكفيني مَلاكٌ واحد ! مُلَمِّحَةً إلى دورا ؛ فاحمرَّ وجهي خجَلاً .

وأخبرَتْني أن الدكتور يعملُ في الصباحِ الباكرِ وفي أثناء الليل ؛ وعلى هذا فالساعاتُ الحرة التي لديَّ تناسبُهُ تماماً . وفي الحال كتبتُ إلى الدكتور طالباً منه الإذْنَ بأن أقابلَهُ في اليوم التالي .

وهنا قُرِعَ الباب ، فشحب لون آغنيس ، وقالت : « هذا أبي .. لقد وَعَدَني بأن يأتي ! »

لم يكن السيد ويكفيلد وَحْدَهُ ، بل كان معَهُ أوريا هيب . لقد فوجئتُ بأن أرى السيد ويكفيلد وقد ظهرَتْ عليه الشيخوخةُ بشكلٍ مؤلم ، وإن كان لا يزالُ يحتفظُ بأناقته . والذي كان يَهْدِمُهُ أكثرَ من أيِّ شيء آخر تلك السيطرةُ التي كان واضحاً للعيان أن أوريا هيب ، التجسيدَ الحيَّ للنذالة ، يمارسُها عليه بوقاحة ما بعدَها وقاحةٌ . كان ذلكَ مَشْهداً من أشدِّ المشاهد إيلاماً لمن يعرفُ هؤلاء الأشخاص .

قالت عمّتي بعْدَ أن جلَسْنا :

« لقد رَوَيْتُ لابنتك ، يا ويكفيلد ، قصّةَ مالي الذي

لم أعُدْ أستطيعُ ائتمانَكَ عليه لأنكَ صدئتَ في ميدانِ الأعمال ! وبعد التفكير رأينا أننا نستطيعُ أن ندبّرَ شؤونَنا .. في اعتقادي أن آغنيس تساوي الشريكين معاً ! »

وقد كانت عمّتي قاسية مع أوريا الذي أشبعَتْه سُخْريةً ولكن السيد ويكفيلد دافعَ عنه بحكمِ خضوعِهِ لهُ ، لسببٍ من الأسباب . وأعلن أنَّهُ طلب منهُ يدَ ابنتهِ .

ولمّا ذهب أوريا ، رافقتُ السيد ويكفيلد وآغنيس إلى منزلهما وتناولتُ معهما طعامَ الغَداء ، وقضيتُ معَهما بقيَّةَ النهار .

١٥ . وظيفة جديدة

توجَّهْتُ في صباحِ اليومِ التالي لمقابلة الدكتور سترونغ ، وقد نَفَضْتُ عني ذلك الهبوطَ الذي اعتراني ، وكفَفْتُ عن التفكير في المصيبة التي نَزَلَتْ بنا ، من زاويةِ الأمس . فقد كان عليَّ أن أبرهنَ لعمّتي أن التضحياتِ التي بَذَلَتْها لم تَبْذُلْها لإنسان عديمِ الشعورِ ناكرٍ للجميل .. كان عليَّ أن أحملَ بيدي فرّاعة حطّاب وأشقَّ لنفسي ، وَسَطَ أدغال المصاعب التي أنا تائهٌ فيها ، طريقاً إلى دورا .

وتلقّاني الدكتور سترونغ بالترْحاب واتّفقْنا على أن

أبدأ العملَ معَهُ – كان لا يزال يعملُ في القاموس – في اليومِ التالي ، بحيث يتِمُّ العمل على مَرْحلَتَيْن وعلى أساس ساعتَيْن في الصباحِ وساعتين أو ثلاثٍ في المساء . أما الأجرُ السنويُّ فهو سبعونَ جُنيهاً ، إلى جانب هِبَة يقدمها كل عام .

كنتُ مستعداً لمزيدٍ من العمل . ولهذا زُرْتُ ترادلز وسألتُهُ كيف يمكنُ لي أن أنقلَ إلى الصُّحُفِ جلَساتِ مجلس العموم . فقال إن عليَّ أن أتعلَّمَ الاختزال ، وتعلُّمُ الاختزال يتطلّبُ عامَيْن على الأقل . فقلتُ إنني سأشتري كُتُباً في الاختزال وأتمرَّنُ في المحكمة على نَقْلِ المحاكمات .

وقال لي ترادلز إنَّ لديْه رسالةً باسمي من ميكوبر . وقد وَرَدَ في الرسالة قول ميكوبر إنه وَقَعَ على الحظِّ السعيدِ وإنه سيسافرُ وعيالَهُ إلى إحـدى مُدُنِ الاقاليم حيث سَيَسْتَقِرّ ، لهذا يَدْعوني لتوديعِهِ .

وسُرِرْتُ لأن مُشْكلَةَ ميكوبر قد حُلَّت . وتوجَّهْتُ أنا وترادلز إلى المنزلِ الذي سَكَنَهُ ميكوبر تحت اسم مورتيمر ليضلِّلَ الدائنين .

واعتذَرَ السيد ميكوبر وزوجتُهُ لاستقبالنا والامتعةُ – وهي قليلةٌ – مُعَدَّةٌ للنقل . وفاجأَنا ميكوبر بأن المدينةَ التي سيَقْصِدُ إليها هي كنتربري وأنَّ « الحظَّ السعيدَ »

الذي وافاه هو وظيفةٌ عرَضَها عليه « هيب » . وراح يُطري « صديقه هيب » ويقولُ إنه خلَّصَهُ من المتاعب الماديةِ التي كان غارقاً فيها ، ولهذا فهو سيَضَعُ كلَّ إمكانياتهِ ومواهبهِ في خدمةِ صديقهِ .

١٦ . وفاة والد دورا

مرَّ عليَّ ثمانية أيام وأنا في حياتي الجديدة ، وما زلتُ متحمساً للقراراتِ التي اتَّخَذْتُها ، وفي نفسي شعورٌ غامضٌ بأني مهما تحمَّلْتُ فذلك يَهُونُ لأني أشُقُّ طريقي . بل فكَّرْتُ أنْ أعيشَ على النباتات ، متخيِّلاً أنَّ تحوُّلي إلى حيوانٍ نباتيٍّ إنما هو تضحيةٌ تجعلُني أكثرَ جدارةً بيَدِ دورا . وقد استقرَّ بنا المقامُ في شارع بكنغهام . فأحْرَزَتْ عمتي انتصاراً ساحقاً على السيدة كروب ، وبَثَّتِ الرعْبَ في قلبها حتى لم تَعُدْ تَخْرُجُ من شقَّتها . وقد استطاعَتْ بما لدَيْها من حُبٍّ للنظام وقدرةٍ على التجديد أن ترتِّبَ حياتَنا كأننا قد حَصَلْنا على إرْث ، لا مُنِينا بخسارة . وكان السيد ديك ينهمكُ في نقلِ الأحكامِ لترادلز برغبة مُذْهِلَة .

ووَدَّعَتْ عمتي « بيغوتي » قائلةً لها :

« إعتني بنفسك ، يا باركيس !.. لم أكنْ أتصوَّرُ أنني سأحزَنُ إلى هذا الحدِّ على فراقِكِ ! »

وأوصلْتُ بيغوتي إلى مَحَطَّةِ العرَبات فأوْصَتْني ، والدموعُ في عينَيْها ، بأن أطلبَ إليها ما أُريدُ ، إن احتَجْتُ إلى مالٍ طوالَ مُدَّةِ تدريبي ، لأنني أحقُّ الناسِ بمالها . وأضافتْ قائلةً :

« ... ثم قُلْ لدورا ، يا وَلَدي الحبيب ، إنني كنتُ أتمنى أن أراها ولو لحظةً واحدةً ؟ وقُلْ لها إنني ، قبل زواجها بابني سآتي لأنظِّمَ لكما البيتَ إذا سمَحْتُما لي بذلك ! »

وكنتُ سألتقي دورا ، تلك الليلةَ في إحدى السهرات . كان عندي كلامٌ عاطفيٌ كثيرٌ أريدُ أن ألقيَهُ على مسامعها . ولكنْ بدلاً من ذلك فاجأتُها ، ولا أدري كيفَ فاجأتُها ، بقولي :

« دورا ! هل أنتِ مستعدةٌ للزَّواجِ من شحّاذ ؟ »

فنظرَتْ إليَّ في دَهَشٍ وامتعاض ، ولم تفهَمْ قَصْدي . فأخبرتها بأننا خسِرْنا كلَّ شيء ، ورُحْتُ أحدِّثُها عن العمل الشاقِّ الذي أقومُ به ، وعن تصميمي على الكفاح المُسْتَمِرّ ، وتَحمُّلِ شَظَفِ العَيْشِ في سبيلِ بناء المستقبَل . فخافَتْ من كلامي ، وبكَتْ ،

وَرَجَتْني ألا أتحدَّثَ إليها عن ذلكَ لأنَّها لا تُحِبُّ سماعَهُ . فحاوَلْتُ إصلاحَ الموقفِ بعرضي المسألةَ بشكلٍ ألطَفَ . وحَدَّثْتُها عن منزلٍ رأيتُهُ في أحدِ الشوارعِ فأعجبَني ، وتصوَّرْتُ أن حياتَنا ستكونُ فيه على ما يُرام . ولكنَّنا يجبُ أن نعيشَ كمكافحين ، ولذلكَ يَحْسُنُ بها أن تتدرَّب على تدبير شؤونِ المنزلِ ، ما دامتْ في كَنَفِ أبيها ، كأنْ تُشْرِفَ على الميزانيةِ وتتعلَّمَ الاقتصادَ والتنظيم ... إلى آخرِ ما هنالك من المواعظ ، ولكنَّها أبت أن تَقْتَنِـعَ بوجوبِ الكفاح . واستأذَنْتُ مبكِّراً لأنهض في الخامسةِ صباحاً ولا أتأخَّر عن عملي .

شَرَعْتُ في تنفيذ ما كنتُ قد فكَّرْتُ فيه بخصوصِ جلَساتِ البرلمان . فاشتريتُ كتاباً مشهوراً يَبْحثُ في فنِّ الاختزالِ ، وأقبلت عليه بجدٍّ ونشاطٍ مُقَلِّباً النظرَ في رموزِهِ وأحاجيهِ التي ما إنْ أقطعُ فيها شوطاً حتى أكونَ قد نسيتُ البداية . فأعود أدراجي لأبدأ من جديد . ولكنْ بفضلِ المثابرةِ والإرادةِ رأيتُ ، بعدَ بضعةِ أشهرٍ ، أنَّ في إمكاني أن أخوضَ التجربة . فذهبْتُ إلى مجلسِ العمومِ لأسجِّلَ إحدى الخُطَب ، إلا أن الخطيبَ أنهى خطابَهُ وجلسَ بينما كان قلمي يتعثَّرُ ببدايةِ الكلام . فقصدْتُ إلى منزل ترادلز أطلبُ إليه النصيحةَ .

فأبدى استعدادَهُ لمعاونتي في ذلك ، بحيث يُملي عليَّ ببطء ويُسَهِّل عليَّ أمرَ المتابعة . وصِرْنا نعمَلُ كلَّ مساء ، حتى تمكنتُ آخرَ الأمرِ من السَّيْر مع ترادلز دون أن أضْطَرَّهُ إلى التوقُّف .

وذاتَ يومٍ ، بينما كنتُ متوجِّهاً إلى مجلسِ العُموم رأيتُ السيد سبنلو عند المدخلِ متجهِّمَ الوجه يتحدَّثُ إلى نفسه ، وقد غاصَ رأسُهُ بين كتفَيْهِ ، كأنَّهُ يعاني صُداعاً شديدَ الوَطْأة .

في صباحِ السبتِ توجَّهْتُ إلى المكتب فوجَدْتُ المُسْتَخْدَمينَ والموظَّفينَ في حالِ اضطراب . قال لي « تيفي » العجوز : « يا لَها من مصيبةٍ ، يا سيد كوبرفيلد ، يا لَها من مصيبة ! »

قُلْتُ : « ماذا ؟.. ما الذي حَدَثَ ؟ »

— « السيد سبنلو ! »

— « ما الذي جرَى له ؟ »

— « توفي ! »

أحسَسْتُ أنَّ الارضَ تميد بي ، وترنَّحْتُ ؛ فتلقَّاني أحدُ المستخدَمين بَيْنَ ذراعيْه . وفكَّ الكتَبَةُ رباطَ عُنُقِي وحملوا إليَّ كأساً من الماء .

وكان الذي حَدَثَ هو أن السيد سبنلو غادرَ منزلَه

الريفي في الصباح. وعندما أقبلَ المساءُ وصلتِ العربةُ وتوقّفتِ الخيولُ أمام باب الإسطبل، ولكنّ السيد سبنلو لم يَهْبط. واقتربَ السائسُ من العربةِ فلم يَجِدْهُ. هناك قامتِ القيامةُ في المنزل، وخفَّ الخَدَمُ إلى التفتيش عن سيّدهم. فوجَدُوْهُ مُلْقىً على الطريق، على نحوِ ميْلٍ من المنزل.

وأرسلتُ من يَسْتَطْلِعُ حالَ دورا، فقيل لي إنها في حالةِ هبوطٍ وانهيار.

بعدَ أيامٍ جاء السيد جوركنز إلى المكتب، واختلى بالسيد تيفي بَعْضَ الوقت؛ ثم فتح تيفي البابَ وأشارَ إليَّ بالدخول. وقال لي السيد جوركنز إنَّهُ وتيفي يريدانِ أن يَفرِزا الأوراقَ ويَضَعا عليها الأختامَ، وإنهما فتّشا عن وصيّةِ المرحوم فلم يجداها. ثم طَلَبَ إليَّ أن أساعدَهُما في هذا العمل.

وكنتُ منذ وفاة السيد سبنلو دائمَ التفكيرِ في أمر دورا، متحرّقاً لمعرفة الوضع الذي ستكونُ عليه بعد وفاة والدها، ومَنِ الذي سيكونُ وصياً عليها... لهذا وجَدْتُ في فكرةِ التفتيش عن الوصيةِ باباً لتبديد مخاوفي وشكوكي.

وأقبلْنا على العمل فراح السيد جوركنز يفتحُ الأدراج، فنُخْرِجُ نحنُ منها الأوراقَ ونفرزُها، فنضعُ ما يخصُّ

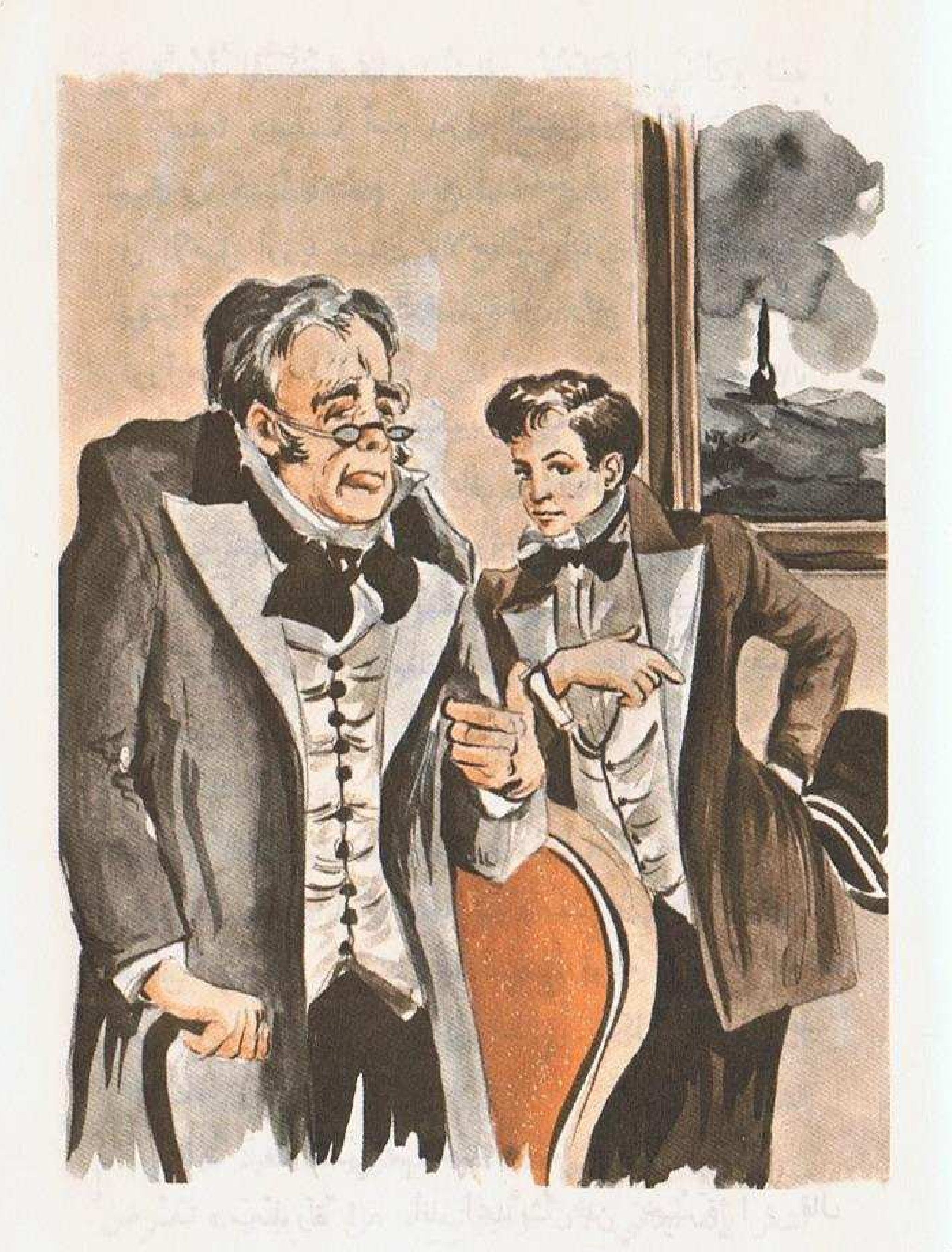
المكتب جانباً، ونجمعُ ما يخصُّ المرحومَ — وما هو بالشيء الكثير — في جانب آخر.

كنا نعملُ بصمتٍ وسطَ الغبار. وبينا نحنُ ماضونَ قال السيد جوركنز: «إنَّ السيد سبنلو لم يكن من الذين يَحيدونَ عن التقاليد والطُّرُق المرسومة. فالمرءُ لا يحبُّ عادةً أن يكتُبَ وَصيّةً، وهكذا يفاجئُهُ الموتُ دونَ أن يكونَ قد هيّأَ وَصيّتَهُ. وهذا يَحْمِلُني على الاعتقادِ بأنَّ المرحومَ لم يحرّرْ أيَّ وَصيّة!»

والذي حيّرَني هو أن أشياءَهُ كانت في مُنْتَهى الفَوْضى، ولم نَعْثُرْ على أيِّ شيءٍ يتصل بما لَهُ وما عليه ولا بمبلغِ ثروتِهِ. وشيئاً فشيئاً اكتشفنا أنه، حرصاً منهُ على البروز بين المُشرِّعين، قد صرف ببَذْخٍ بحيث أحدَثَ فجوةً هائلةً في ممتلكاتِهِ الشخصيةِ، التي لم تكن، على أيِّ حال، بالغةَ الاتساع.

وقد بيع أثاثُ المكاتب، وأُجِّرَتِ الدارُ لشخص آخر. وقد قال لي تيفي، إذ كان يعرِفُ اهتمامي بهذه المسألةِ، إنَّهُ بعدَ استقطاع حِصّةِ الشَّرِكةِ ووفاء ديونِ المرحومِ لم يَبْقَ سوى ألفِ جنيه. ولم أعرِفْ ذلك إلا بَعْدَ ستةِ أسابيع.

ولم يكن لدورا سوى عَمَّتَيْن غيرِ متزوّجتَيْن



حوار بين دايفيد و « ميكوبر »

تَسْكُنان في « بوتني » . وقد ظلَّتا سنينَ طويلةً لا تتصلانِ بأخيهما إلا نادراً ؛ فعرَضْنا على دورا أن تذهب معهما إلى بوتني ، فتعلَّقَتْ بهما وهي تُرْسِلُ الدموعَ . وهكذا رَحَلَتْ معهما بعد بضعةِ أيامٍ من غياب أبيها .

١٧. آلام نفسية

لا بُدَّ أن عمَّتي بدأتْ تقلَقُ عليَّ لما أصابني من انهيار . من أجل ذلك أرسلتني إلى « دوفر » بِحُجَّةِ الاطِّلاعِ على حالةِ المنزلِ وتجديدِ الايجار ، إذ أنَّ جانيت قد دخلت في خدمةِ السيدة سترونغ ، وكنتُ أراها باستمرار .

وقد استأذنتُ الدكتور في السفر لمدَّة ثلاثةِ أيام ، فنصحني بإطالة المدة . أما العملُ في المكتبِ فقد تأخَّرَ إلى أقصى الحدود بعد غياب السيد سبنلو ، وأصبحتِ الفائدةُ منه قليلةً ، بحيث لم أندَمْ قطُّ على الألفِ جنيهٍ ندَمي عليها في تلكَ الفترة .

في دوفر وَجَدْتُ كلَّ شيء على ما يُرام . بل إني وَجَدْتُ المستأجرَ يُحقِّق أمنية عمتي ، فقد كتبتُ إليها قائلاً إنه يَشُنُّ حرباً شَرِسةً ضدَّ الحمير التي تتخطَّى حدودَ أرضِها الخضراء . وبعدَ قضاءِ ليلةٍ في دوفر ،

توجّهتُ إلى كنتربري .

عندما وصلتُ أمام منزل السيد ويكفيلد ، وجدتُ ميكوبر يكتبُ باهتمامٍ بالغ في الحجرة التي كان يَشْغَلُها في الأصل أوريا هيب . ولاحظتُ أن ميكوبر كان فَرِحاً بِمَرْآيَ وضيقاً به في الوقت نفسه . وقد أرادَ أن يأخُذَني فوراً عند أوريا فرَفَضتُ .

وقد أخبرَني السيد ميكوبر بأنَّهُ استأجرَ البيتَ الذي كان يَسْكُنُهُ أوريا ، ودعاني إلى زيارتِه ، لأنَّ السيدةَ ميكوبر ستكونُ مبتهجةً برؤيتِه . وسألْتُهُ إنْ كانَ راضياً عن المعاملةِ التي يلْقاها من صديقِهِ هيب ، فتأكَّدَ أولاً من كَوْنِ البابِ مغلقاً ، ثم أقبلَ عليَّ يقولُ بصوتٍ منخفض :

« عندما يكونُ المرءُ ، يا عزيزي كوبرفيلد ، تَحْتَ وَطْأَةِ العوَزِ ، يُصْبحُ موقفُهُ دقيقاً أمامَ الجميع . والذي يزيدُ الأمرَ سوءاً أنَّ الحاجةَ تدْفعُكَ إلى المطالبة براتبكَ قَبْلَ موعدِهِ .. وكلُّ ما أستطيعُ قولَهُ في هذا المجال هو أنَّ صديقي استجابَ إلى مطالبي بشكلٍ يستحقُّ عليهِ الثنـاء . »

قلتُ : « ولكنّي لم أعهَدْهُ بهذا الإسراف . »

— « مَعْذِرَةً ! .. أنا أتحدَّثُ عن خبْرَةٍ ! » قال

هذا وكأنّي أغظْتُهُ . قلتُ : « إنه ليَسُرُّني أن تنجحَ في تجربتِكَ هذا النجاحَ ! »

وسألْتُهُ ، لتغييرِ الحديثِ ، إنْ كانَ يَرَى السيدَ ويكفيلد ، فأجابَ بشيءٍ منَ الاحتقار :

« نادراً ! .. إنَّ السيد ويكفيلد طيِّبٌ ولكن .. ولكن .. بالاختصار لم يَعُدْ ينفعُ لشيء ! »

— « أخشَى أن يكونَ شريكُهُ هو الذي يفعَلُ كلَّ ما ينبغي من أجلِ هذا الغرض ! »

فردَّ وهو يأتي بحركاتٍ تدلُّ على ضيقِهِ وتبرُّمِهِ :

« إسمحْ لي ، يا عزيزي كوبرفيلد ، بأن أُبْدِيَ لكَ ملاحظةً ، هي أني أحتَلُّ هنا مركزَ ثِقَةٍ .. إنَّ واجبي يَحُولُ بيني وبين الخَوْضِ في بعضِ المواضيعِ حتى مع السيدة ميكوبر ! »

ورسَمَ خطاً بيدِهِ على المكتبِ وهو يقولُ إنه يجبُ وَضْعُ الأشياء التي تَخُصُّ شركةَ ويكفيلد ـ هيب في جانبٍ وكلَّ ما عداها في الجانبِ الآخرَ . بمعنى أنَّهُ غيرُ مُسْتَعِدٍّ للتحدُّث في الأولى ، معَ الاعتذارِ إلى « رفيقِ الشباب » ، أيْ أنا .

وهكذا وضَحَ لي أن السيد ميكوبر قد تغيَّر ولكني لم أشعر بأنه أهانني لأنَّ واجباتِهِ ، على ما يبدو ، تَفْرِضُ

عليه تصرُّفاً معيَّناً. وقد قلتُ لهُ ذلك، فبدا عليه أنَّهُ استراحَ وصافحَني.

وتركتُهُ وفي قرارة نفسه أن مَهامَّهُ الجديدةَ أصبحت تَقِفُ دونَ وَحْدة الحالِ القديمة بيننا.

دَخلْتُ البَهْوَ فلم أجِدْ أحداً؛ فتوجَّهْتُ إلى حُجرة آغنيس فوجَدْتُها تَكْتُبُ بالقُرْب من النار.

وبعدَ أنْ جلَسْنا رُحْتُ أشكو إليها الآلامَ النفسيةَ التي تسيطر عليَّ. وقلتُ لها إنها دائماً كانتِ الشخصَ الوحيدَ الذي يُخرجني من حَيْرتي وآلام نفسي. وإنني كلَّما كنتُ مَعَها أشعرُ بأني إنسانٌ آخر. ورَوَيْتُ لها ما حدَثَ لي مَعَ دورا قبلَ وفاةِ والدها. وطلبْتُ نصيحتَها. فأشارَتْ عليَّ بأنْ أكتُبَ إلى العمتَيْن. فقرَّرْتُ أن أفعلَ ذلك في اليومِ نفسِهِ.

ثم نزلتُ لأرى السيد ويكفيلد وأوريا هيب. فوجدت هذا الأخيرَ وقد احتلَّ مكتباً جديداً بُنِيَ في الحديقة. فتظاهرَ بأنه لم يَعْلَمْ بمَقْدَمي. وأخذَني إلى مكتبِ السيّد ويكفيلد، أو إلى ظِلِّ مكتبِهِ، لأنَّ كثيراً من الأثاثِ المُهِمِّ والمُريح قد نُقِلَ منه إلى مكتبِ الشريكِ الجديد. وتبادَلْتُ التحيّاتِ مع السيد ويكفيلد بينما وقَفَ أوريا بجانب النارِ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بيدِهِ العَظْمِيَّة.

قال السيد ويكفيلد، وهو ينظر إلى أوريا كأنَّما يطلبُ منه الموافقةَ:

«يجبُ أن تَمكُثَ مَعَنا، يا تروتوود، خلالَ إقامتكَ في كنتربري!»

قلت: «وهَلْ لديكُمْ مكان؟»

فردَّ هيب قائلاً: «أنا مُستعدٌ، يا أستاذ كوبرفيلد.. كانَ عليَّ أن أقولَ يا سيد كوبرفيلد ولكنَّها كلمة رِفاقيَّة جرَتْ على لساني عَفْوَ الخاطر.. أنا مستعدٌ لأنْ أُخلِي لكَ حُجْرتَكَ القديمةَ، إذا كانَ هذا يَسُرُّكَ!»

قال السيد ويكفيلد:

«كلا، كلا!.. هناكَ حُجْرَةٌ غيرُها!»

فوافقتُ على الحُجْرةِ الأخرى.

أثناءَ العَشاء تكلَّمَ أوريا كثيراً. وسأل أمَّهُ إن لم يَكُنِ الوقتُ قد حان لتفكيرِهِ في الزَّواج، ونظر إلى آغنيس نظرة تمنَّيْتُ معها أن أصرَعَهُ في الحال. وعندما جلَسْنا وَحْدَنا، نحنُ الثلاثة، بعد العَشاء، شرب السيد ويكفيلد عِدَّةَ أنخاب، فأفرغَ بذلك كأسَيْنِ اثنتَيْن. وأراد أوريا أن يُرِيَني مَبْلَغَ سَيْطرَتِهِ على العائلة، فقال:

«والآن، يا شريكي الطيِّب، جاء دوري لأعرِضَ

نخباً خاصاً.. ولكنني أطلبُ بتواضعٍ كؤوساً أكبرَ:
لِنَشْربْ نخبَ أروَعِ فتاةٍ بَيْنَ بناتِ جنسِها!»

كان السيد ويكفيلد يحملُ كأسَهُ الفارغَةَ في يدِهِ، فوضَعَها على المائدةِ، ونظر إلى صورة ابنتِهِ، ومرَّ بيده على جَبْهَتِهِ ثم تهالَكَ على مَقْعدِهِ. فعاد أوريا يقول:

«وأنا لستُ سوى إنسان بسيطٍ يتجرَّأ على الطلبِ بأن نشرَبَ نَخْبَها، ولكنّي مُعْجَبٌ بها، بل مفتون!»

ورأيتُ ذلك الأبَ المسكينَ، الذي يبدو رازِحاً تحت عبءٍ ثقيلٍ من الهَمّ يَضَعُ رأسَهُ بين يدَيْهِ المرتعِشَتَيْنِ ثم ينخرِطُ في البكاء. وبينَ دموعِهِ قال:

«لستُ أدري ما الذي فعَلْتُهُ بضربٍ من الجنون، ولكنَّهُ، هو يعرِفُ ذلك، هو الذي كان يلاحقني دَوْماً وينفُثُ فيّ سمومه. ها أنت تجدُهُ مستقرّاً في بيتي، متدخِّلاً في جميعِ شؤوني.. وقد سمعتَهُ الآنَ بنفسك.. ماذا أستطيعُ أن أقولَ أكثرَ من ذلك؟»

وجاءت آغنيس، فأخذَتْ أباها بهدوء، وراحت تخفِّفُ عنه.. وحاولَ اوريا، الذي تولَّتْهُ الحَيْرَةُ، أن يعتذِرَ إليّ؛ فلم أرُدَّ بأيِّ كلمةٍ، بل توجَّهْتُ إلى الحُجْرة الصغيرةِ الهادئة التي كثيراً ما كانت آغنيس تأتيني فيها فتجلسُ معي بينما كنتُ أعمل. وعندما دقَّتِ الساعةُ

مُنْتَصَفَ اللّيْلِ كنتُ لا أزال أُطالِع. وفيما أنا غائبٌ عمّا حولي شعَرْتُ بيد آغنيس على كَتِفي. كانَتْ تبتسِمُ لي، ولكنْ كان ظاهراً على وجهها أنها بَكَتْ كثيراً. قالت:

–«جئتُ أودِّعُكَ!»

–«أرى أنكِ لا تريدين أن أتحدَّثَ إليكِ في هذا الأمرِ الآنَ، يا عزيزتي آغنيس... ولكنْ ماذا يمكنُ أن نَفْعَلَ؟»

–«نسلِّمُ أمرَنا إلى الله!»

–«ألا أستطيعُ أن أفعَلَ شيئاً، أنا الذي آتي إلى هُنا لأحمِّلَكِ هُمومي فوقَ همومِكِ!»

–«بل أنتَ تخفِّفُ بوجودِكَ هُمومي!»

كانَ الظلامُ لا يزالُ سائداً عندما ركبتُ العربةَ في فَجْرِ اليومِ التالي لأعودَ إلى لندن. وبينما كانتِ العربَةُ تَهُمُّ بالتحرُّكِ رأيتُ أوريا يَصْعَدُ إلى جانبي ويقولُ لي إنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى، فقدْ ذَهَبَ إلى حُجْرَتِهِ وسوّى الأمرَ. وأضافَ أن السيّد ويكفيلد محتاجٌ إليه. فأجَبْتُهُ بأني مسرورٌ لأنّه اعتذَرَ منه.

١٨. آغنيس تبدي اعجابها بـ«دورا»

في مساء ذلكَ اليومِ رَوَيْتُ لِعَمَّتي كلَّ ما حَدَثَ بالتفصيل. وقد اهتمَّتْ عمَّتي بهذهِ القضيَّة اهتماماً تاماً. وكانَ من عادتِها كلَّما شغَلَها موضوعٌ أن تذرعَ الحُجْرَةَ ذَهاباً وإياباً. ويُمْكِنُ لمن يراقبُها أن يعرفَ خطرَ الموضوعِ من مدَّة هذه الرِّحلة. وفي تلكَ الليلة دامت نزهتُها ساعتَيْن، وفتحَت الحُجْرَةَ الثانية ليكونَ المجالُ أمامَها من الاتساع بحيث يتناسبُ مع قلَقِها. وكنَّا أنا وديك جالسَيْن قُرْبَ النار، فكانت تَمُرُّ بجانبنا مُقْبِلَةً مُدْبِرَةً في خطٍّ مستقيمٍ، كرقّاصِ السّاعة.

ثم ذهبَ السيِّد ديك لينامَ، بينما جلسْتُ، أنا، لأبيِّضَ رسالتي إلى عمَّتَيْ دورا. أما عمَّتي فقد جلَسَتْ أمامَ النارِ عندما أحسَّتْ بالتعب. وكنتُ كلَّما رفَعْتُ عَيْنَي عنِ الورقةِ رأيتُها تنظرُ إليَّ. ثم قالَتْ: «إنني أحبُّكَ كثيراً، يا تروت، ولكنَّني منزعجةٌ وحزينةٌ!»

في اليومِ التالي أرسلْتُ الخطابَ، وما هيَ سوى أيام حتى تلقَّيْتُ الرَّدَّ؛ وفيه ترجو العمَّتانِ من السيد كوبرفيلد أن يأتيَ ليَبْحَثَ معَهُما في مضمونِ رسالتِهِ؛

ويُسْتَحْسَنُ، إذا رأى ذلكَ مناسباً، أن يَصْطَحِبَ معَهُ شخصاً يَثِقُ به، فأجبْتُ في الحال أنني سأقومُ بزيارتِهما في اليومِ الذي حدَّدَتاه، وسيكونُ في صُحْبَتي صديقي المحامي السيد توماس ترادلز.

كانتِ الآنستان سبنلو عجوزَيْن ضَئيلتَي الجسمِ، وصُوْرَتَيْن مُصَغَّرَتَيْنِ عن أخيهما. وبعدَ أن فَحَصَتاني أذِنَتا لي بِرُؤيةِ دورا، وسَمَحَتا بأن أتناولَ الغداءَ عندهما كلَّ أحدٍ، وأن آتيَ مرَّةً خلالَ الأسبوعِ لتناوُلِ الشاي. ومنذ ذلكَ اليومِ ضاعفتُ جهودي في دراسة الاختزالِ حتى لا أدَعَ دورا تنتظرُ كثيراً، ولا أفقدَ ثِقَةَ العجوزَيْن.

وقد جاءت آغنيس لزيارة السيدة سترونغ، وقضاء خمسةَ عشَرَ يوماً، فا غتنمْتُ هذه الفرصةَ، لأعرِّفَها بدورا. وكانتْ دورا تخشى أن تلقاها، ولكنَّها ما إن وقَعَ عليها نظرُها ورأتْ عينَيْها الهادئتَيْن الطيِّبتَيْن، بابتسامتِهما العَذْبَةِ الآسِرَة حتى ألْقَتْ نفْسَها بين ذراعَيْها. وقد قالت: «لو كانتْ لي مثلُ هذهِ الصديقة منذُ سنين، أفما كنتُ أحسنَ حالاً وأوسعَ تفكيراً؟»

وكنتُ أنتظرُ اللحْظةَ التي أخلو فيها إلى آغنيس لأعرفَ رأيَها في دورا. وقد جاءَتْ هذهِ الفرصةُ، فراحَتْ

تكيلُ لها المديحَ والثناء ؛ وبمنتهى الطِّيْبَةِ والمحبةِ هنأتْني
لأني استطعتُ أن أحظى بقَلْبِ هذه المخلوقةِ الصغيرةِ
الرائعة . وبِرِقَّةٍ وبراعةٍ لَمَّحَتْ إلى المسؤوليةِ الكبيرةِ
المُلْقاةِ على عاتقي تجاهَ خطيبتي الساذجة البريئة .

أثناء إقامة آغنيس ووالِدِها عند الدكتور سترونغ كانت
تَصِلُ أكثرُ من رسالةٍ في اليوم باسم اوريا هيب . وقد
ظلَّتْ هذه الرسائلُ مدَّةً من الزمنِ هناك ، لأنَّ الجميعَ
كانوا في عُطْلةٍ . وقد لاحظْتُ أن العنوانَ على الغلافاتِ
مكتوبٌ بخطٍّ واحدٍ هو خطّ السيِّد ميكوبر ، وأنَّ
الحُرُوْفَ مَرْسُومةٌ بشكلٍ فنّيٍّ على الطريقةِ المدوَّرَة ،
مما دلَّني على أنَّ السيد ميكوبر بألفِ خير .

غيرَ أني فُوْجِئْتُ بخطابٍ لي من زوجتِهِ السيدة ميكوبر
تَفْتَحُ لي قلبَها فيه ؛ فتقولُ إن السيد ميكوبر كان في
الماضي لا يُخْفي عنها شيئاً ، اللَّهُمَّ إلا الأشياءَ التافهةَ
كتاريخِ الاستحقاق لِسَنَدٍ من السَّنَدات . ولكنَّهُ أصبحَ
لا يُطْلِعُها على شيء ، وأصبح مُتَجَهِّمَ الوَجْهِ ،
دائمَ الحُزْنِ لا يُقارِبُ ابنَهُ الكبيرَ او ابنتَهُ ولا يلاطفُ
التَّوْأمَيْنِ ، ولا يُقْبِلُ على المَوْلودِ الصغيرِ الذي جَدَّ
على الأسرة . وإلى جانب هذا كان لا يَدْفَعُ لها ما يكفي
لإطعامِ أبنائِهِ . وفي النهايةِ طَلَبَتْ مني الرأيَ والنَّصِيحَة .

١٩ . الزواج

أصبحتُ الآنَ راشداً .. صارَ لي من العُمْرِ واحدٌ
وعشرونَ عاماً .. فنُّ الاختزالِ الوحشيُّ ، طوَّعْتُهُ
وجَعَلْتُهُ أليفاً ؛ وغَدَوْتُ أكسبُ منه دَخْلاً محترماً إلى
حدٍّ بعيد . فلقدْ أضحَيْتُ في عِدادِ المختزِلينَ الاثنَيْ
عشَرَ الذين يَنْقلونَ مُناقشاتِ مجلسِ العُمومِ لإحدى
الصُّحُفِ الصباحية .

أما صديقي العزيزُ ترادلز فقد جرَّبَ نفسَهُ في هذا
الميدان ، ولكنَّهُ رأى أنَّهُ ليسَ مَيْدانَهُ ، وتلَقَّى
الفشلَ بروحٍ طيبة . ولكنَّ محرِّري الجريدةِ التي أعملُ
فيها كانوا أحياناً يكلفونَهُ بتزويدِهِمْ ببعض الأنباءِ
والوقائعِ التي كانت تُعادُ صياغتُها بأيدٍ أكثرَ مهارةً
في الفنِّ الصّحفي . بهذهِ الوسيلةِ جَمَعَ مئةَ جنيه ،
فدفعَها إلى أحدِ المكاتبِ للدراساتِ الحقوقية ؛ ودخلَ
بذلك سِلْكَ المحاماة .

وقد جابهتُ تجربةً جديدةً صَعْبَةً : هي التأليف !
أقْدَمْتُ على التأليفِ وأنا خائفٌ مُتَوَجِّسٌ . فلما
نَشَرَتْ إحدى الصحفِ تجربتي الأولى تشجَّعْتُ ، وبَدَأَتِ
الثِّقَةُ تَشيعُ في نفسي . فأرسلْتُ عِدَّةَ أعمالٍ صغيرة

فنُشِرَتْ جميعاً ودَرَّتْ عليَّ بعضَ المال ، حتى أصبحَ دَخْلي ثلاثمئةٍ وخمسينَ جنيهاً .. ليس هذا مزاحاً !

وعلى هذا الأساس انتقَلْنا من شارع بكنغهام إلى منزلٍ أنيقٍ بجانب المنزلِ الذي كان قد أعجبَني في الماضي

وقد باعت عمَّتي منزلَها في دوفر ، واستأجرَتْ داراً صغيرةً متواضعةً بالقربِ من منزلِنا ، ولم تشأْ أن تسكُنَ معَنا . وهكذا بدأتِ الاستعداداتُ لزواجي ، بَعْدَ أن أبدَتِ الآنستانِ سافينا وكلاريا سبنلو موافقتَهما على انتقالِ دورا إلى بيتِ الزَّوْجيَّة . ولكنَّهما كانتا صَعْبَتَيْن في اختيارِ الجهازِ والأثاث . ونزولاً على طلب دورا اشتريتُ لكلبها « جيب » ، بيتاً صينياً علَّقَتْ فوق مدخله أجراسٌ صغيرة . ولكنَّ « جيب » لم يألَفْهُ بسرعةٍ ، لأنَّ الأجراسَ كانت ترنُّ كلَّما دَخَلَ وخرج ، فيُصابُ برُعْبٍ شديد . وأتتنا بيغوتي لتُشْرِفَ على نظافةِ المنزل .

وجاء اليومُ المنتظَرُ واجتمعَ حولَنا الأهلُ والأصدقاء .

كنا انا ودورا لا نَفْقَهُ شيئاً في إدارة المنزل . وقد جاءَتْنا خادمةٌ تولَّتْ كلَّ شيء ، لأنَّ دورا لم تتعوَّدِ الأعمالَ المنزلية . وكنا نخشاها معاً وخاصةً دورا . كانت تتأخرُ في إعداد الغَداء ، وتطهو بعضَ المآكل بشكلٍ

رديء . وقد حاولتُ لَفْتَ نظرِ دورا إلى أنَّ عليها ملاحظتَها . فتأثَّرَتْ وبكَتْ ، لأنني أطلبُ منها ذلك ، رغمَ معرفتي أنها تجهَلُ إدارةَ المنازلِ والإشرافَ عليها . وحاولتُ استرضاءَها فلم أفلِح . فتركتُ البيت ، ولم أعُدْ إلا في الثانيةِ بعد مُنْتَصَفِ الليل ، فوجَدْتُ عمَّتي في انتظاري ، فسألْتُها بقلَقٍ :

« ما بكِ يا عمَّتي ؟ »

— « لا شيء ، يا تروت ! غيرَ أني وَجَدْتُ الزَّهرةَ الصغيرةَ — هكذا كانت تدعو دورا — مكتئبةً بعْضَ الشيء ، فبقِيتُ هنا لتَسْلِيَتِها ! »

كنتُ في غايةِ القَلَقِ والانزعاج ، فأسنَدْتُ رأسي بيدي ورُحْتُ أنظرُ ساهماً إلى الموْقِد . ثم رَفَعْتُ رأسي فقابلَتْني عينا عمَّتي .. قلتُ :

« أؤكدُ لكِ ، يا عمَّتي ، أنني ظَلَلْتُ تعيساً طُولَ اليومِ لأنني أغضبْتُ دورا ! ولكنَّ نيَّتي كانت حَسَنَةً .. كنت أريدُ أن أحدِّثَها في شؤوننا المنزليةِ بكلِّ لطفٍ وهدوء ! »

فَحَنَتْ رأسَها موافِقةً ، ولكنَّها قالتْ :

« ينبغي أن تتذرَّعَ بالصبر ، يا تروت ! »

— « بالطبع ، يا عمَّتي !.. يعلم الله أنني لم أقل شيئاً

غير معقول ! »

-- « كلا ، كلا ! ولكنَّ الزهرةَ الصغيرةَ حساسةٌ جداً ، ولا بُدَّ للأنسام أنْ تَهُبَّ عليها بمُنْتَهَى اللّطف . »

كنتُ بيني وبين نفسي مُمْتَنّاً لِعَمّتي أشدَّ الامتنان لعطفها على زوجتي . وسألْتُها إن كانت تستطيعُ أن تزوِّد « دورا » ببعض النصائح وتحاولَ توجيهَها وتعليمها .

فأجابت باحتجاج :

« كلا ، يا تروت ! لا تطلبْ منّي هذا أبداً .. أنت تعلمُ أن تدَخُّلي في شؤونِكما الخاصة يُشْقي الزّهرةَ الصغيرةَ ، وأنا أريدُ أن تحبّني هذه الحِلْيَةُ العزيزة ، وأن تكونَ مَرِحةً كالفراشة . أذْكرْ أمّك وما جرى لها بعدَ زَواجِها الثاني ، ولا تطلُبْ مني ما يُعيدُ تلكَ الذكريات المؤلمة ! »

فأدركتُ في الحال أن عمّتي على حق .. وعادَتْ بعد لحظةٍ تقول :

« الصبرَ ، يا تروت !.. أنتما لا تزالانِ في بدايةِ الطريق .. وباريس لم تُبْنَ في يومٍ ولا في عام .. لقد اختَرْتَ بنفسك شريكةَ حياتك ، وبكلِّ حُرِّيةٍ .. وكان اختيارُك ، في الحقيقة ، جيداً ، فهِيَ مخلوقةٌ صغيرةٌ رائعةٌ

تحملُ لكَ الحبَّ الكثير .. أنا لا أريدُ أن أتلُوَ عليك مَوْعِظةً من المواعظ ، ولكني أحبُّ أن أقولَ لك شيئاً واحداً هو: إنّ واجبَكَ وسعادتَكَ يَقْضيان عليك أن تحبَّها كما هي ، لأنك اختَرْتَها من أجل المزايا التي تملِكُها لا تلك التي تفتقرُ إليها .. ثم حاوِلْ بعد ذلك أن تكملَ نَقْصَها ، فإذا لم تنجحْ — وهنا حكّتْ عمّتي أنفها — كان لِزاماً عليك أن تعوِّدَ نَفْسكَ الاستغناءَ عما تتطلَّبُهُ منها ! ولا تنسَ ، يا صديقي ، أنّ مستقبلَكُما قضيةٌ تُسَوَّى بينكما أنتما ، ولا أحدَ يستطيعُ أن يتولاّها غيركما ، فعليكما أن تهتَمّا بنفسكما ؛ هذا هو الزّواج ، يا تروت ! »

وتصافَيْنا أنا و« دورا » بسهولة .

إنّ مشكلةَ الخدَمِ مشكلةٌ محيِّرةٌ . فابنُ عمّ خادمتِنا « ماري — جان » هرَب من الجيش ، وجاء فاختبأَ في مخزَنِ الفحْم ، الذي أخرجَتْهُ منه دوريّةٌ من زملائه الجنود مُصَفَّدَ اليديْن . وامتلأت الحديقةُ بالناس ، وكانَتْ فضيحة . فسَرَّحْتُ « ماري — جان » ؛ غير أني عرفتُ بعدَ ذلكَ كيفَ اختفَتْ ملاعقُ الشاي الفضيّة ؛ كما عرَفْتُ أن « ماري — جان » كانت تقتَرِضُ بعضَ المبالغِ الصغيرةِ باسْمِنا من البائعينَ الذين نتعاملُ

مَعَهُمْ .

وتعاقبَتْ على منزِلِنا بضعُ خادماتٍ ، ولكلٍّ منهنّ عِلّةٌ من العِلَل ، ولكنّهنّ يشترِكْنَ جميعاً في شيءٍ واحدٍ هو أنهنّ مصدرُ خسارة وغُرْم ، بحيث أنني عندما راجعت حساباتي ، وجدْتُ أننا اشترَيْنا من الزبدة وَحْدَها ما يكفي لطِلاء الطابقِ الأرضي من بيتِنا كلِّه .

هذا إلى جانب أنه لا تأتينا إلا الأشياء الرديئة : فاللحم قاسٍ كالجلد ، والخبزُ معجّن من داخلِه و ... وبعدَ عِدّةِ مرّات تناولَ فيها ترادلز الطعامَ على مائدتنا ، وكان مُعَدّاً بشكلٍ رديء، قالت لي دورا :

« إنني متألمةٌ جداً ، فهل لكَ أن تعلّمني ! »

— « مع الأسف ، يا عزيزتي ، فأنا لا أعرِفُ أكثرَ منك ! »

— « كان عليَّ أن أقيمَ عاماً في الأقاليم مع آغنيس لأتعلّمَ منهـا ! »

— « كلُّ شيء يأتي في أوانِه ، يا حبيبتي . فالواقعُ أن آغنيس تهتمُّ بشؤونِ والدِها منذُ سِنين .. منذُ أن كانت طفلةً ! »

بعدَ أيامٍ قالت لي إنها ستكونُ ربّةَ بيتٍ ممتازة . لقد اشترت كتاباً للتدبير المنزليّ ولَوْحـاً ، وراحَتْ

تعمَلُ ، ولكنَّ « جيب » كان يُفْسِدُ العمل . ولما فشلتْ طلبتُ أنا منها أن تأخُذُ القيثارةَ ، وألاّ تحفِلَ بهذه الأشياء . ولكنّها كانت تريدُ أنْ تصبح مفيدةً لي وأن تعاونني لأنني كنتُ مشغولاً طولَ الوقت . فقد أصبحتُ أتمتّع بشيءٍ من الشُّهرةِ في عالَم التأليف ، إلى جانب العمل في نقل جلَسات البرلمان . ولهذا فقد كنتُ أكلّفُها بنقل صفحة أو صفحتين من إحدى المخطوطات ، فكانت تفرَحُ كالأطفال . والواقعُ أنها كانت طفلةً جميلةً وكانت تحبّني وتُحِبُّ عمّتي .

٢٠ . الزهرة تذبل على غصنها

أحْرَزْتُ نجاحاً بارزاً ، منذُ بعضِ الوقت ، في الحقلِ الأدبيّ ، فرأيتُ أن في إمكاني أن أستغنيَ عنِ اختزال الجلَسات في المجلس لأنقطعَ إلى الكتابة ، دون أن أتضايقَ من الناحيةِ المالية .

كان قد مضى على زَواجنا عامٌ ، ودخلْنا العامَ الثاني . في هذا العام بدأتْ دورا تَضْعُفُ وتفقدُ حيويّتَها شيئاً فشيئاً . وقد اشتدَّ وَهَنُها حتى صِرْتُ لا أنظُرُ إليها مرّةً إلا وتمتلىء نفسي خوفاً عليها . وذاتَ يومٍ كانَتْ

مُسْتَلْقِيَةً على الكَنَبَةِ وعمَّتي تنسُج قريباً منها . فقالت لعمتي :

« عندما أستعيدُ نشاطي وأتمكَّنُ من الجَرْيِ كما في السابق ، سأُخْرِجُ « جيب » ، لأنه أصبح ثقيلاً وكسولاً ! »

قالت عمّتي : « يلوحُ لي يا عزيزتي ، أن بِهِ مَرَضاً أخطرَ من الكسل : إنه مَرَضُ الشيخوخة ! »

— « أتعتقدين أن « جيب » قد أصبح عجوزاً ؟ لم أكنْ أتصوَّرُ أن ذلك سيَحْدُثُ له في يوم من الأيام ! »

— « إننا كلّنا مُعرَّضونَ لهذا المرض ، يا صغيرتي ، كلّما خطَتْ بنا السّنون ! إنني أشعرُ الآنَ بهذا أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى ! »

— « يا لَلصّديق المسكين ! »

— « لا تخشَيْ شيئاً ، أيّتُها الزهرةُ الصغيرة : إنه سيعيشُ فترةً طويلةً أيضاً ! » قالتْ لها هذا وهي تقبّلُها بحنان ؛ ثم أضافت : « سأكلِّف من يُبَطِّنُ له بَيْتَهُ بالفلانيل هذا الشتاء ، وأنا متأكدةٌ أنّهُ سينتعشُ في الربيعِ مثلَ الأزهار ! »

يا لَلصّغيرة الحبيبةِ الجميلة ! عندما نزلَت يومَ الأحد التالي لتناوُلِ الغداء وأبْدَتْ فرحتَها برؤيةِ ترادلز ، الذي كان يتغدّى عندنا كلَّ أحد ، ظننّا أنها

ستعودُ إلى سابق عَهْدِها وتجري خلال مدة قصيرة . كان الأطباءُ يقولون لنا : انتظروا بضعةَ أيامٍ » ، ثم « بضعةَ أيام أخرى » . ولكنّها لم تجرِ ، بل حتى لم تَعُدْ تسيرُ . لقد كانت مَرِحةً جميلةً ، ولكنَّ قدمَيْها الصغيرتَيْن اللتين كانتا تَرْقُصان بخفّة حول جيب ، أصبحتا ضعيفتَيْن لا تتحرّكان . وصِرْتُ أحملُها على ذراعيّ وأهبط بها صباحاً ، وأصعدُ بها بنفس الطريقة عند المساء . وكانت أثناء ذلك تطوّقُ عُنُقي بذراعَيْها وتضحكُ طولَ الطريق ، كأنَّ الأمرَ يتعلّقُ برِهانٍ مَنْ يخسَرُهُ يَحْمِلُ الآخر .

ولكنْ أحياناً ، عندما كنتُ أحملُها فأجدُها أخفَّ من الأيامِ السابقةِ ، ينقبضُ قلبي ويستولي عليَّ حزنٌ دفينٌ ، وشعورٌ بأنني أسير نحو منطقةٍ جليديةٍ مجهولةٍ مجرَّدُ التفكير فيها يملأ حياتي بيأسٍ قاتلٍ ، وظلمةٍ دامسةٍ . وكنتُ أبعِدُ عني هذهِ الأفكارَ السوداء . وذاتَ يومٍ ، وقد سمعت عمّتي تقولُ لها : « تصبحينَ على خيرٍ أيّتُها الزهرةُ الصغيرة » ، جلست أبكي في مكتبي ، إذ تطيّرت من هذا الاسم : أكُتِبَ لهذه الزهرة أن تذوي على غصنها كما تذوي الأزهار ؟!

٢١ . سر ميكوبر

ذاتَ صباحٍ تلقَّيْتُ رسالةً غريبةً منَ السيِّد ميكوبر يتحدَّثُ فيها عن راحةِ الضميرِ التي فقَدَها ، وعَنِ استعدادِهِ لتفجيرِ قنبلةِ الانتقام ، وعن حاجتِهِ إلى تغييرِ الهواء ؛ ثم يطلُبُ الاجتماعَ بي وبترادلز ، ويحدِّدُ الموعدَ والمكانَ .

وكنتُ لا أزالُ ممسكاً بالرسالةِ أحاولُ حلَّ رُموزِها عندما دَخَلَ عليَّ ترادلز . ولما أخبرْتُهُ بها وبالألغازِ التي حفلَتْ بها قال إنهُ هو أيضاً تلقَّى رسالةً من السيدة ميكوبر . فتبادلناهما وأخذَ كلٌّ منا يقرأ رسالة الآخر .

كان خطابُ السيدة ميكوبر شبيهاً بالخطاب الذي سَبَقَ أن وَجَّهَتْهُ إليَّ من قبل . غيرَ أنها تقولُ في الخطاب الجديدِ إنَّ زَوْجَها كثيراً ما يقولُ لها إنهُ بـاعَ نفسَهُ للشَّيطان ؛ وتقول إنه يزدادُ عُنفاً وقسوةً معها ، يوماً بعد يوم . وقد أعلنَ لها أنه سيطلبُ الانفصالَ عنها . ثم تُخبرُ ترادلز بأنَّ زَوْجَها سافر إلى لندن ، ولذلك هي ترجوه أن يعمَلَ على إعادتِهِ إلى بيتِهِ وأولاده .

وسألني ترادلز : « ما رأيُكَ في هذا الكتاب ؟ »

قلت : « وأنت ما رأيك في الكتاب الآخر ؟ »

قال : « من رأيي أن لهما مغزىً خاصاً يختلف تمامَ تمامَ الاختلافِ عن رسائلِ ميكوبر السابقة ، ولكنني لا أستطيعُ أن أحدِّدَ بالدِّقَّة ما يَعْنيان .. يا لَها من امرأةٍ تاعسة ! »

واتفقْنا على أن نبدأ بكتابةِ رسالةٍ إلى السيدة ميكوبر نُهَدِّىء بها رَوْعَها ونَعِدُها بأن نعمَلَ على إراحتها . وكَتَبْتُ الرسالةَ ثم وَقَّعْناها معاً ، وخرَجْنا لنضعها في البريد .

وعَقَدْنا اجتماعاً مع عمَّتي لم نخرُجْ منهُ بحلٍّ سوى أنْ نحرِصَ على الذَّهاب للقاء ميكوبر .

وَصَلْنا قبلَ الموعدِ برُبْع ساعةٍ ، ولكنَّنا وجَدْنا أن ميكوبر قد سبَقَنا . ولاحَظْنا أن ميكوبر لم يكن بالأناقة التي عَهِدْناها فيه ؛ ثم إنَّه كان مُغْتَمّاً ، ولكنَّهُ بعدَ أن أمضى معَنا بعضَ الوقت بدأ يستعيدُ أسلوبَهُ المألوف .

كان اللقاءُ بجانب السِّجن ، الذي يعرِف كل حَجَرٍ فيه ، لأنَّه دخلَهُ مرّاتٍ عديدةً بسببِ الديون ، وعن متاعبِ الحياة . قال له ترادلز :

« سيد ميكوبر ، يبدو أنَّكَ في غايةِ الاكتئاب ؟! »

قال : « أجل ، يا سيدي ! »

قال ترادلز : « أرجو ألاّ يكونَ ذلك بسبب قرَفِك

من مكتبِ المحاماة ، لأنني أنا نفسي محامٍ ! »

فلم يُجِبْ ميكوبر . وبعد لحظةِ صمتٍ سألتُهُ :

« وكيف حالُ صديقِكَ هيب ؟ »

قال وقد اصفرَّ لونُهُ :

« إن كنتَ تسمِّي ذاك الـذي أعملُ عنـده صديقاً لي فـذاك يُسيء إليّ ، وإن كنتَ تسمِّيه صديقاً لكَ فدعْني أضحك . إسمَحْ لي بأن أقولَ إنَّ له وَجْهَ ثعْلَبٍ ، إذا لم نَقُلْ وَجْهَ شيطان ! »

ثم سألتُهُ عن آلِ ويكفيلد ، فراحَ يُطري آغنيس ويقولُ إنها النجمُ الوحيدُ الذي يلتمعُ وسطَ ليلٍ دامسِ السواد.

وظهر التعبُ والاضطرابُ على ميكوبر ، فرجا منا أن نأخُذَهُ إلى مكانٍ آخر . فدخلْنا إلى شارعٍ ضيِّقٍ ، فما كان من ميكوبر إلا أن أخرجَ مِنديلَهُ ، بعد أن استندَ إلى الحائط ، وأخذَ ينْتَحِب . ولكنَّه كان يُريـدُ أن يُخفيَ دموعَهُ عن المارّة . فاقترَحْتُ عليه ، حِرْصاً مني على استلالِ السِّرّ الذي يُخفيهِ في صَدْرِهِ ، أنْ آخذَهُ إلى منزلِ عمتي وأعرِّفَهُ إليها .

وتلَقَّتْهُ عمَّتي ببشاشةٍ وترحيبٍ ، فقبَّلَ يدَها وهو في غايةِ التأثرِ ، ووقف إلى جانب النافذةِ وكأنَّه فريسةٌ لصراعٍ داخليّ . واقترَحْتُ عليه أن يَصنَعَ مزيج

« البنش » الذي يُجيده . فراحَ يَعْمل ، ولكن كان من الواضح أن ذهنَهُ في مكان آخر ، إذ كان يخلُطُ بين الاشياء التي أمامَهُ فيتناولُ شيئاً بَدَلَ شيءٍ آخَرَ . ثم انفجرَتِ الأزمةُ فأزاحَ مِنْ أمامِهِ جميعَ الأشياء ، وأخرجَ مِنديلَهُ وراح يَبْكي وينتحبُ . قلت له :

« سيِّد ميكوبر ، قُلْ ما بكَ ؟ أرجُوْكَ أن تتَكلَّم .. فليس حولَكَ سوى أصدقاء ! »

— « أصدقاء ! يا لله ! وهل كنت في هذه الحالة المفجعة إلا لأنني بين أصدقاء ؟! تسألني يا سيِّدي عمَّا هناك .. هناك خُبْث .. هناك حِطَّة .. هناك خَيْبَةُ أملٍ وغِشٌ وتآمُر .. وكلُّ هذه الفظاعاتِ لها اسمٌ واحدٌ هو : هيب ! »

وضَرَبَتْ عمَّتي يداً بيَدٍ ، فانتَفَضْنا جميعاً كأننا أُصِبْنا بمسّ .

وراحَ ميكوبر يقولُ إنه لم يَعُدْ يطيقُ ذلك الصراعَ العنيفَ بينه وبين ضميرِهِ ، لأنه أصبحَ في غايةِ التعاسةِ ويريدُ أن يَضَعَ حدّاً لكلِّ هذا . وطَلَبَ إلينا أنْ نَخِفَّ إلى نجدة الآنسة ويكفيلد ، واعطانا مَوْعِداً بَعْدَ ثمانيةِ أيامٍ لنَلْقاهُ في فندق كنتربري ، ووَعد بأن يَفْضَحَ ذلك النَّذْلَ المُنحطَّ هيب؛ ولكنَّه لن يبوح بسرِّهِ قبل ذلك . ثم انطلقَ خارجاً من المنزل .

٢٢. افتضاح امر « هيب »

قَبْلَ الموعِدِ بيومٍ قالت عمّي إنها لا تريدُ أن تَتْرُكَ « دورا » لوحدها . ولكنّ دورا قالت إن « جيب » يستطيع أن يَسْهَرَ عليها ، وأصرّتْ على عمّي أن تسافرَ مَعَنا .

وصلنا إلى كنتربري صباحاً وتوجّهْنا إلى الفُندق ، حيث لَبِثْتُ واقفاً بجانب النافذةِ انتظرُ ميكوبر . كنّا جميعاً موجودين : عمّي وديك وترادلز وأنا . ولمّا جاء ميكوبر قال لنا أن نلحقَ به إلى منزل ويكفيلد بعدَ خمسِ دقائقَ . وقبلَ أن يترُكَنا قال لترادلز :

« سيد ترادلز ، إسمَحْ لي أن أخبرَ أصدقاءَنا بأنني اتصلْتُ بك ! »

قالَ ترادلز : « هذا صحيح ، يا كوبرفيلد ، فقد اتصلَ بي السيد ميكوبر ليَسْتَشيرَني وقد أبديتُ له رأيي ! »

بعد خمسِ دقائقَ تحرّكَ موكبُنا في اتجاهِ منزلِ السيِّد ويكفيلد . ولما وَصَلْنا رأينا ميكوبر ، مُكِباً على العَمَل كما لو أنّه لا يُوْجَدُ شيء . فسلّمنا عليه ، فقامَ يستقبلُنا بلهفةٍ واحترامٍ . وقلت له بصوتٍ مرتفع :

« هل الآنسة ويكفيلد موجودة ؟ »

اجاب : « إنّ السيد ويكفيلد في السرير .. ولكن الآنسة

ويكفيلد ستكونُ جِدّ مسرورةٍ باستقبالِ أصدقائها القُدامى .. تفضّلُوا ! »

وسارَ أمامَنا فاجتازَ غرفةَ الطعامِ ثم فَتَحَ بابَ الحجرةِ التي كانت مكتباً للسيِّد ويكفيلد ، وصاحَ مُعْلِناً :

« الآنسة تروتوود ، السيد دايفيد كوبرفيلد ، السيد ترادلز ، السيد ديكسون ! »

كانت زيارتُنا مفاجأةً كبرى ، بالطبع ، لأوريا هيب . وعندما رآنا لم يقطِّبْ حاجبَيْهِ ، إذ ليس له حاجبان ، ولكنه زمّ جبينَهُ بحيث كادَتْ عيناهُ الصغيرتان أن تنطبِقا ، بينما ارتفعَتْ يدُهُ العَظْميَّةُ إلى ذقنِهِ بكثيرٍ من القلَق والاستغراب . ولكن لم يَدُمْ ذلك سوى لحظةٍ ؛ ففي اللحظةِ التاليةِ اتخذَ قِناعَ المَسْكَنَةِ والدَّهاء . قال :

« حقاً إنّهُ لسرورٌ غيرُ منتظَر .. كيفَ أنتَ يا سيد كوبرفيلد ؟ أرجو أن تكونَ السيدة كوبرفيلد قد تماثلَتْ للشّفاء ! »

ووَجّه الخطابَ إلى عمّي قائلاً :

« تغيّرتِ الأمورُ كثيراً هنا ، يا مس تروتوود ، عمّا كانت عليه في الماضي يومَ أن كنتُ أمسكُ لكِ الحصان ، أما أنا فلم أتغيّرْ ! »

فأجابَتْهُ عمّي قائلةً :

«الحق ، يا سيد ، أنك احتفظت بكل ما كنت تتميز به في صغرك ! »

وطلب هيب من ميكوبر أن يخبر آغنيس وأمه بمجيء الزائرين . وسأله ترادلز ، الذي التقت عيناه بعيني ذلك الثعلب المحتال إن كان مشغولاً ، فأجاب :

«كلا ، يا سيد ترادلز ! ليس بالقدر الذي أتمناه .. وليس معنى هذا أننا ، أنا والسيد ميكوبر ، لا نجد عملاً ، كلا ، بل ، إننا ، من يوم أن أصبح السيد ويكفيلد لا يقدر على أي عمل تقريباً ، نجد أن من واجبنا أن نؤدي عمله أيضاً .. اعتقد أنك لست على صلة بالسيد ويكفيلد ، يا سيد ترادلز ؟.. حتى أنا نفسي لم أرك سوى مرة واحدة ! »

— « فعلاً .. أنا لستُ متصلاً بالسيد ويكفيلد وإلا لأتيح لي أن ازورك قبل الآن ! »

كان في لهجة ترادلز ما شغل بال أوريا ؛ لذلك ألقى عليه نظرة شك وتوجس . ولكنه ما لبث أن عاد كما كان ، عندما رأى ترادلز طلق الوجه طبيعي التصرف .

ودخلت في هذه اللحظة آغنيس ووراءها السيدة هيب . وكانت آغنيس تبدو مرهقة قلقة . وأشار ميكوبر لترادلز فخرج . قال أوريا : « ميكوبر ، لست في حاجة إلى البقاء هنا ! »

ولكن ميكوبر ظل واقفاً أمام الباب ، وقد أسند إحدى يديه على مسطرة كبيرة مدسوسة تحت صدرته ، وراح يثبت نظره على رئيسه . وعاد أوريا يقول :

« ماذا تنتظر ؟ ألم تسمع ما قلته لك ؟ »

أجاب ميكوبر دون أن يتحرك : « بلى ، سمعت ! »

— « فلم إذن لا تزال هنا ؟ »

— « لأن ... لأن هذا يعجبني ! »

فاصطبغ وجه أوريا بصفرة كصفرة الموت ، وقال :

« أنت لست سوى تابع مسكين .. الكل يعرفون هذا .. وأخشى أن تضطرني إلى التخلص منك .. أخرج ! سأكلمك فيما بعد ! »

هنا انفجر ميكوبر مرة واحدة كالبركان ، وصاح :

« إذا كان في هذا العالم نذل لئيم يتفرد بالنذالة واللؤم فهو هيب ! »

ورجع أوريا بحركة فجائية إلى الوراء ، كأنما لدغته أفعى سامة ؛ ثم أجال فينا ببطء نظرات تنضح بالغضب والشر ، وقال بصوت منخفض :

« إذن هناك مؤامرة !.. يبدو أنكم تواعدتم هنا مع مستخدمي ، يا كوبرفيلد !.. ولكن حذار !.. إنكم لن تنجحوا .. انتم لا تحبونني .. عند زيارتكم الأخيرة

كنتم في غاية الشراسة .. إنكم تحسدونني على ما أحرزته
من نجاح ! ولكنني احذركم المؤامرات ، وإلا فسأقابلها
بالمثل ! لقد اشتريتم مستخدمي ، وهو رجل مثلك
يا كوبرفيلد قبل أن يحسنوا إليك ، ودفعتموه إلى
اختلاق الأكاذيب لتشويه سمعتي .. آنسة ويكفيلد ،
استحلفك بالحب الذي تحملينه لأبيك ، أن لا تنضمي
إل هذه العصابة ، إن كنت تريدين ألا أعمل على
خرابه !.. أين أمي ؟ »

ولاحظ أن أمه وترادلز غائبان . ورد عليه ترادلز ،
الذي دخل في هذه اللحظة قائلاً :

« ها هي السيدة هيب ، يا سيدي !.. اتذ سمحت
لنفسي بأن أعرفها من أنا . »

— « ومن تكون أنت ؟ وأي شأن لك هنا ؟ »

— « أنا صديق السيد ويكفيلد ووكيله .. وفي جيبي
الأوراق الثبوتية التي تفوضني التحدث باسمه والدفاع
عن مصالحه ! »

قال أوريا الذي أصبح منظره رهيباً :

« لا بد أن هذا الحمار العجوز قد سكر حتى فقد
وعيه ، فأخذ منه توقيع على وثيقة بالوسائل الاحتيالية ! »

فأجاب ترادلز بكل هدوء :

« أنا أعرف أنه أخذ منه شيء عن طريق الاحتيال ..
وأنت تعرف هذا مثلي ، يا سيد هيب ! وسأترك للسيد
ميكوبر أمر البحث في هذه المسألة ، إذا سمحت ! »

وقالت أمه وقد ظهر عليها القلق :

« أوريـا ! »

فصاح بها : « أسكتي ، أنت ! كلما كثر الكلام
كثر الخطأ ! »

— « ولكن ، يا صديقي ... »

— « قلت لك اسكتي !.. دعيني أتكلم ، أنا ! »

وأخرج السيد ميكوبر مسطرته الطويلة من وسطه
ثم اخرج من جيبه رزمة من الأوراق وبدأ يقرأ ، في
الوقت الذي انقلب فيه لون أوريا من الشحوب إلى الزرقة .

بدأ السيد ميكوبر بمقدمة بلاغية بين فيها كيف أنه
تحت ضغط الفاقة والحرمان دخل في خدمة شركة
« ويكفيلد وهيب » ، التي كان لولبها والمتصرف الوحيد
بشؤونها أوريا هيب « المزور والنصاب » . فقفز هيب
نحوه يريد أن ينتزع الأوراق من يده ويمزقها. فما كان
من ميكوبر إلا أن ضربه بالمسطرة على أصابعه ضربة
جعلته يتلوى من الألم وهو يقول : « لتحملك
الشياطين !.. لا بد أن أقتص منك ! » .

لقد كان مَشْهَداً هزْليّاً من أمتع المشاهدِ أن نرى هيب وهو يتوجَّعُ بينما ميكوبر يلوِّحُ بمسطرتِهِ ويقول له : « تقدَّمْ ، تقدَّمْ يا رُكاماً من جرائم ! »

ثم راح ميكوبر يَرْوي ، في تقريرِهِ كيف اكتشفَ ، عن طريقِ مفكرةٍ لـ « هيب » استولى عليها ومفكرةٍ أخرى أحرقَها هيب ولكنَّ ميكوبر أخذ بقاياها ، كيف اكتشف خداعَ هيب وتزويرَهُ .. وكيف أن هيب نقلَ أموالاً تخصّ السيد ويكفيلد إلى حسابه ، وكيف جعَلَ السيد ويكفيلد يُوَقِّعُ على أوراقٍ هامةٍ على أنها أوراقٌ لا شأنَ لها ؛ بل إنه قلَّدَ توقيعَهُ وصارَ يستخدمُهُ ؛ ولما أوصلَهُ إلى الحالةِ التي هو فيها وخافَ أن يموتَ قبلَ أن يستوليَ هُوَ على كلِّ شيء ، لجأ إلى تزويرِ وثيقةٍ يتنازلُ فيها ويكفيلد عن جميعِ ما يملكُ وفاءً لدَيْنٍ وَهْمِي لـ « هيب » ...

وكانت عمتي تستمعُ بانتباه ؛ وكم كان دَهَشي عظيماً عندما اندفعَتْ نحو « هيب » وأمسكَتْهُ من تلابيبِهِ وقالت : « أُريدُ ثَرْوَتي ! »

ثم التفتَتْ نَحْوَ آغنيس وقالت : « لقد سكتُّ ، يا عزيزتي آغنيس ، حتى الآن ظناً مني أن أباكِ هو الذي أضاعَ ثَرْوَتي .. حتى « تروت » لم يَعْرِفْ أنَّ مالي كان

مع أبيك .. أما الآن وقد علمتُ أن هذا الشَّخْصَ هو المسؤولُ فانني أريدُ استعادةَ ثروتي ! »

ونظر إليَّ « هيب » وقال :

« ماذا تريدون مني ؟ »

فردَّ عليه ترادلز قائلاً :

« نريدُ أولاً أن تُسلِّمنا الوثيقةَ التي تنازلَ السيد ويكفيلد لَكَ بموجبها عن جميعِ مُمتلكاته ! »

— « وإذا لم تكنْ معي ؟ »

— « إنها معَكَ ! ثم نريدُ أن تُعيدَ كلَّ ما استوليْتَ عليه ، بجَشَعِكَ ، حتى آخرِ قرش .. وسنحتفظُ بجميعِ الأوراقِ والمستنداتِ التي تخصُّ الشركة ! »

— « يجبُ أن تمنحوني الوقتَ اللازم ! »

— « بالطبع ! ولكن حتى ذلك الحينِ ستلازمُ حُجْرَتَكَ ولن تتَّصِلَ بأيِّ شخص ! »

وحاولَ هيب أن يقاوِمَ ، فأفهَمَهُ ترادلز أنَّهُ سيدعو رجال الشرطةِ إن لم يَخْضَعْ . فسكت وهو يُهَمْهِم .

وطلب ميكوبر منا أن نَشْهَدَ مُصالَحَتَهُ مع امرأتِهِ ولما رأتْ عمتي تلكَ الأُسْرةَ الكثيرةَ العددِ قالت لميكوبر :

« لماذا لا تَرْحَلُ إلى استراليا ؟ »

فأجاب : « إنَّ هذا حُلْمٌ قديمٌ ، ولكنْ أينَ المال ،

يا سيدتي ؟ »

قالت : « نحنُ نُعطيكَ المال ! »

٢٣ . وفاة « دورا »

بينَ الدموعِ والتأوُّهاتِ أكتبُ هذهِ السُّطور . فلقد اعتلَّتْ زوجتي الصغيرةُ ثم انطفأت.. أنفاسُها الأخيرة لفظتْها على ذراع آغنيس . وما هذه بالبُرْهة التي أستطيع فيها أن أصِفَ اللَّوْعَةَ التي سَحَقَتْ نفسي . ولكي أقولُ إنني على أثرِ هذا الحَدَثِ الفاجع بدا لي وكأن المستقبل قد سُدَّ في وَجْهي ، وأنني قد فقَدْتُ إلى الأبد حَيَوِيَّتي ونشاطي . ولم يَعُدْ أمامي سوى القبر .

وقد لبثتُ مدةً طويلةً وأنا لا أجدُ من عزاءٍ لي إلاّ أن استذكرَ لحظةً بلحظةٍ مراحلَ تلكَ القصة المحزنةِ التي مرَّت في حياتِي . ولا أدري كيفَ ولا متى أُوحِيَ إليّ أن الوسيلةَ الوحيدةَ لإعادة الهدوء إلى نفسي هي السفرُ والتجوال . ولعلَّ الذي اقترَحَ هذه الفكرةَ هي آغنيس التي كانت لنا نِعْمَ المؤاسِية في تلكَ الأيام العَصِيبة .

غيرَ أن سفري تأجل « حتى يتمَّ سَحْقُ هيب » ، حَسَبَ تعبير ميكوبر . ونزولاً على طلب ترادلز ، الذي

كان لي خيرَ صديقٍ ومعينٍ أثناء مِحْنتي . عُدْنا إلى كنتربري أنا وعمتي وآغنيس . وكان في انتظارنا ميكوبر ، الذي كان يُكْمِلُ استعداداتِهِ لِلْهِجرة . وعلَى هذا الأساسِ قدَّم إلى عمَّتي كمبيالةً « بالمساعدة المادية » التي أبدَتِ استعدادَها لإعطائِهِ إياها ، يُقَسَّط فيها المبلغُ ، الذي حدَّدَهُ ، على ثلاثة أقساط . إلا أنَّ عمّتي قالت له أن يتصرَّف كما يشاء . ثم قدَّم السيد ميكوبر ذراعَهُ لزوجته ومضى بعدَ أن ألقى نظرةً على الأوراق والمستندات . قال ترادلز :

« لكي أكونَ مُنصِفاً مع ميكوبر ، عليَّ أن أعترِفَ بأنه إنْ كان لا يُحْسِنُ خدمةَ نفسِهِ فهوَ يخدِمُ الآخرينَ دونَ كَلَلٍ ؛ والحقُّ أنني لم أرَ مثيلاً له في حياتي ! »

والسيد ديك كذلك أدَّى خدمةً عظيمةً : فقد ظلَّ يَحْرُسُ أوريا هيب إلى حين عَوْدَتِنا : ولما أُحِلَّ من هذه المُهِمَّةِ جعَلَ يساعِدُ في كلِّ شيء وينْقُلُ ما نحتاجُ إليه من المستندات .

وقال ترادلز ، مطمئناً آغنيس ، إن صحةَ السيد ويكفيلد قد تحسَّنت تحسُّناً بارزاً ، أثناءَ غيابنا ؛ وذلك بعد أن أزيحَ عن ظهرِهِ ذلكَ العِبْءُ الثقيلُ وتحرَّرَ من الخوفِ الذي كان مُسْتَحْوِذاً عليه .

بعد ذلك عَرَضَ علينا نتائجَ أعمالِهِ ، فتبيَّنَ أن السيد ويكفيلد لم يُفْلِسْ ، بل إنهُ ، على العكسِ من ذلك ، يستطيعُ أن يتقاعدَ وهو مرفوعُ الرأس ، ناصعُ الجبين . إلاّ أنَّهُ لن يَبْقَى له ، بعد تسديدِ كلِّ شيء ، سوى بضعِ مئاتٍ من الجنيهات يعيش بها . وقالت آغنيس إنها سعيدة بأن تتكفل ، هي ، الآن بتدبيرِ شؤونِ المستقبل ؛ فلديها مشروعٌ لا بُدَّ أن ينجح لأنَّ الجميعَ يعرِفونها ولا يريدونَ لها سوى الخير . ومشروعُها هو أن تؤجِّرَ المنزلَ وتفتحَ مدرسةً تعيش ، هي ووالدُها ، من رَيْعِها وتقدِّمَ بفضلها خدمةً لمجتمعها الصغير .

أما ثروةُ عمّي فقد أمكن ، بجهود ميكوبر ، أن يَنتزِعَها ترادلز من مَخالبِ أوريا الذي رَحَلَ هو وأمُّهُ إلى لندن .

فيما يتعلق بميكوبر ، تمَّ الاتفاق على أن تتكفل عمّي بوفاءِ ديونِهِ ودَفْعِ تكاليفِ سَفَرِه وأسرَتِه إلى استراليا وإعطائه ، مبدئياً ، مئةَ جنيهٍ يبدأ بها العملَ هناك .

قَضَيْنا الليلةَ في منزل آل ويكفيلد ، الذي رَفْرَفَ عليه السلامُ بعد أن استُبْعِدَ عنهُ وباءُ أوريا وأمِّه ؛ ونمتُ في حجرتي القديمة . وفي اليومِ التالي عُدْنا إلى لندن ؛ ولكنني لم أحتمل الذهابَ إلى منزلي ، بل أقمتُ عند عمّي . وتمَّ الاتفاقُ على أن تلحق آغنيس بنا ، وأن

يُسْرِعَ ترادلز في إنهاءِ كلِّ ما يتعلَّقُ بأعمالِ السيد ويكفيلد .

وجاء إلى لندن أصدقاؤنا ، أهلُ يارموث ، الذين توالَتْ عليهِم المصائبُ والآلامُ فقرروا الهجرةَ إلى استراليا ، على نَفْسِ الباخرةِ التي كان ميكوبر مسافراً عليها . فعرَّفْتُ الأُسْرَتَيْنِ ببعضهما حتى يتعاونوا أثناءَ الرِّحلةِ وبَعْدَها . وجديرٌ بالذِّكرِ أنَّ السيد ميكوبر قُبِضَ عليه ثلاثَ مرّات من أجل الدَّين ، وفي المرّاتِ الثلاثِ كُنّا نَخلِّصُهُ ونَدْفَعُ ما عليه .

وغادرتُ بدَوْري لندن إلى إيطاليا ، ثم إلى سويسرا ؛ وظَلَلْتُ أطوفُ ثلاثةَ أشهر . ثم قرَّرْتُ الاستقرارَ مؤقتاً في سويسرا حيث كتبتُ قصةً ، وصلَتْ أنباءُ شُهرتِها إليَّ في مُنْتَجَعي ، مع المسافرِين الذين كنتُ أصادِقُهم . وكان ترادلز هو الذي عُنِيَ بنشرها بأفضلِ الشروط . وعَكَفْتُ من بَعْدِها ، بمُنْتَهى المثابرةِ والنشاط ، على تأليفِ قصتي الثالثةِ حولَ موضوعٍ كان يَجذِبُني إلى أبعدِ حدّ . وما إنْ وَصَلْتُ إلى منتصَفِها حتى ألحَّتْ عليَّ فكرةُ العودةِ إلى لندن ، فلم ألبَثْ أن أخرَجْتُها إلى حيِّزِ التنفيذ .

٢٤ . بعض التغيرات

كنتُ قد أعلنتُ موعِدَ وصولي إلى لندن على عيدِ الميلاد ؛ ولكنني استبَقْتُ هذا الموعدَ ، ونزَلْتُ من السفينة ذاتَ عَشِيَّةٍ باردةٍ مُمْطرة .. كنت أريدُ أن يكونَ مجيئي مفاجأةً للجميع ، ولكنْ داخلَني بعضُ النَّدَم ، إذْ لم أجِدْ أحداً في انتظاري .

أثناء غيابي حَدَثَتْ بَعْضُ التغيرات . فقد عادَتْ عمّي إلى منزلها في دوفر ؛ أما ترادلز ، الذي أصبحَ له بعضُ الزبائن ، بُعَيْدَ سفري، فقد انتقَلَ إلى منزلٍ صغيرٍ في « غرايز — إنْ » .

عندما وَصَلْتُ إلى هذا الحيِّ دخلتُ فندقاً حيثُ أَوْصَيْتُ على عشاءٍ في مطعمِهِ ، ثم صَعَدْتُ إلى حُجْرَتي لأغيِّرَ ملابسي . وبَعْدَ أن انتهَيْتُ ، هَبَطْتُ لتناوُلِ العشاء في المطعم الذي كانَ يُخَيِّمُ عليه الهُدوءُ لنُدْرَةِ الزبائن ، بسببِ العُطلةِ القضائية — لأن قَصْرَ العَدْلِ قائمٌ في تلك الناحية .

تناولتُ العشاءَ بسرعةٍ ومَضَيْتُ لأرى صديقي ترادلز . وقبل أن أصل إلى شقَّتِهِ ، التي توجد في الطبقةِ العُليا من بناءٍ قديم ، سمعْتُ ضجةً وضَحِكاً صادرَيْنِ عن عددٍ

من الصَّبايا .

وفاجأتُ ترادلز ، وكان لقاءٌ حارّ ، رُحنا نتعانقُ فيه لحظةً بعدَ أخرى ، ونضحكُ ونبكي من الفرح ؛ ثم نمسَحُ دُموعَنا لنحتضِنَ بَعْضَنا مَرَّةً أخرى . وفاجأني ترادلز بنبأ زَواجِهِ . وأقبلَتْ زوجتُهُ ، التي كانت تنطِقُ عيناها بمعاني البهجةِ والسَّعادة . وكان عندَها خمسٌ من أخواتها. والضجةُ التي سَمِعْتُها كانتْ صادرةً عن هذا البيتِ السعيد ، لأنَّ الجميع كانوا يَلْعَبُونَ لُعْبَة « الغمَيْضة » كالأطفال .

وقَصَّ عليَّ ترادلز قصةَ زَواجِهِ ، وكيف أنَّهُ أقنعَ والدَها ، الأب المحترم هوراس ، ولكنَّ أمَّها عارَضَتْ وحزِنَتْ لأنَّ « صوفي » كانت هي مُدَبِّرَةَ المنزل . وقد بكى الإخوةُ والأَخَواتُ لفراقها . وتحدَّثَ إليَّ أيضاً عن حياتِهما المتواضعةِ ، والسعيدةِ جداً مع ذلك .

وجاءتِ البنات .. باقةٌ من الورود الضاحكةِ النَّدِيَّة .. فقدَّمهُنَّ إليَّ . وجلسنا جميعاً نحتسي الشاي . ورَوَتْ لي « صوفي » أنها و « توم » قضيا شهْرَ العسلِ في مقاطعة « كنت » ، فاجتمعَتْ بعمّي ، وكذلك بآغنيس ، وأن الحديثَ كان يدورُ حولي في الغالب ؛ لأنَّ توم كان يأتي على ذكري باستمرار .

وعندما أَرَدْتُ الاستئذانَ ، قال ترادلز إنه سيُوْصِلُني إلى الفندق ، ولم يَخرُجْ معي حتى تداولَتْ رأسَهُ أيدي الفتياتِ الناعمة ، ورُحْنَ يُوَدِّعْنَهُ بالقُبَل .. لقد أثَّرَ فيَّ هذا المشهدُ إلى حدٍّ أنني فكرتُ فيه طويلاً بعد أن وَدَّعني ترادلز على باب الفندق .

كنتُ جالساً في بَهْوِ الفُندقِ أمامَ النار ، أنظرُ إلى الجَمْر كيف يَحتَرِقُ ثم يتحوَّلُ إلى رَمادٍ أبيضَ يتهالكُ على أرضِ المَوْقِدِ ليختلطَ بما سَبَقَ من الرماد . وكانت أفكاري تحومُ حول ترادلز ، وحَوْلَ الجوِّ الهنيء الذي يُحيطُ به ، رَغْمَ قِلَّةِ الموارِدِ ؛ ويتجلَّى أمامي ما ينتظرُهُ من النجاحِ ورِفْعَةِ الشأنِ ، بفضل تلكَ السعادةِ التي تملأُ حياتَهُ . وأذكرُ نفسي ، وأذكرُ كيف تحطَّمَتْ آمالي وذابَتْ كما تذوبُ هذه الجَمَرات . على أني ، بَعْدَ هذهِ الرحلةِ ، التي دامت ثلاثَ سنوات ، أصبحتُ قادراً على استعراضِ الماضي دونَ لوعةٍ وتَفَجُّعٍ ، وأنظرُ إلى المستقبل بكلِّ شجاعة .

وبينا أنا كذلكَ برزَتْ أمامي صورةٌ من ماضيَّ البعيدِ البعيدِ . فقد كانَ يجلسُ في آخرِ البَهْوِ رَجُلٌ أعرفُهُ جيداً ، ولا يمكنُ أن أنساهُ لأنه مرتبطٌ بذكريات الطفولة : إنه الدكتور تشيليب ، الذي ضَرَبَتْهُ عمتي بِقُبَّعَتِها على

رأسه بَعْدَ ولادتي . كان يقرأ الصحيفةَ بشَغَفٍ وأمامَهُ كأسٌ من النبيذ. فاتَّجهْتُ نحوَهُ ، ثم وَقَفْتُ أمامَهُ وقلت :

« كيف أنتَ ، يا سيد تشيليب ؟ »

فأجاب بهدوء :

« شكراً لك ، يا سيدي !.. وأنت ؟ لعلَّكَ بخير ! »

قلت : « هل تذكُرُني ؟ »

قال وهو يبتسم بلطف

« يبدو لي أنني رأيت هذا الوجه ، ولكنني لا أستطيع تَذَكُّرَ الاسم ! »

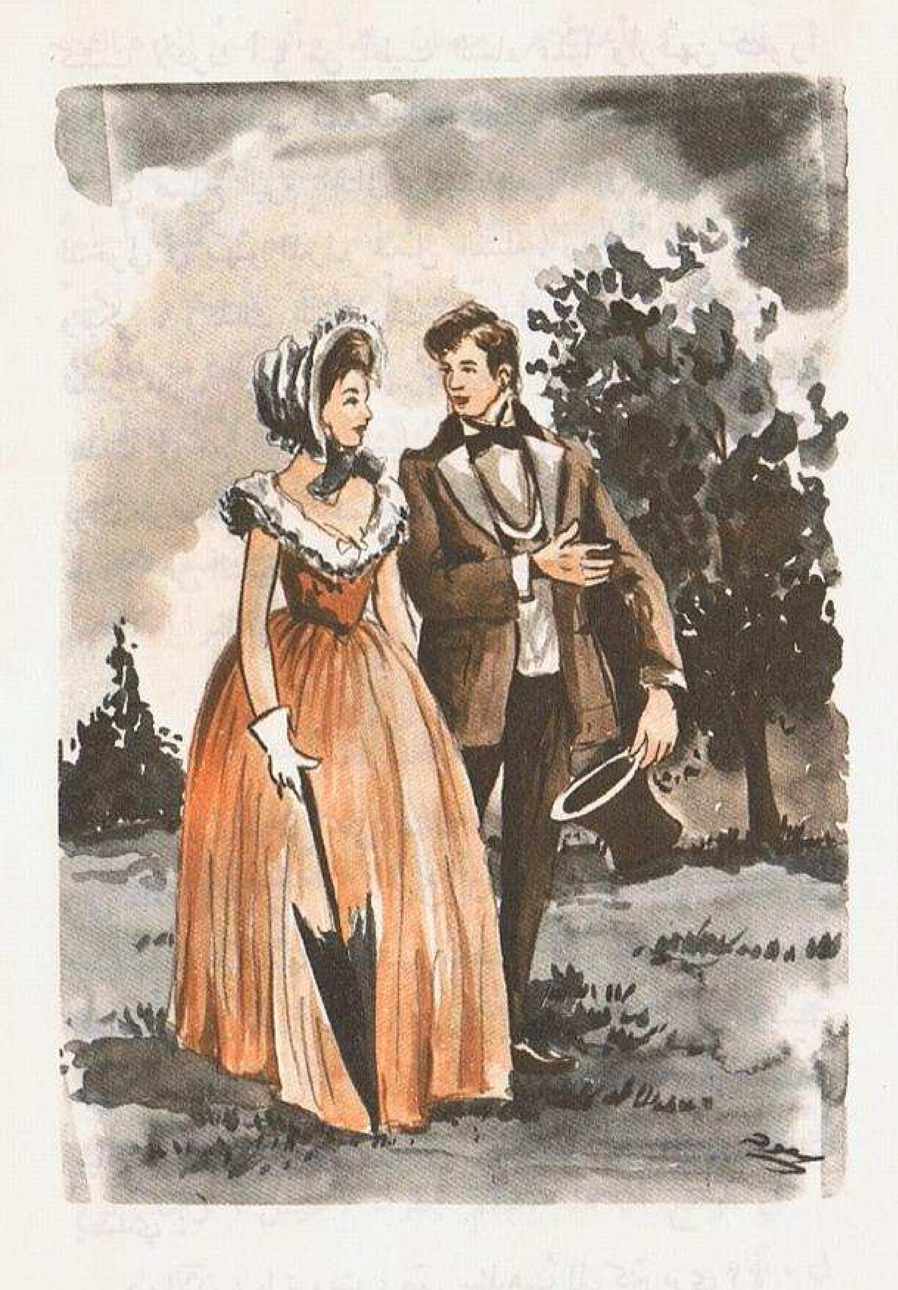
– « ومَعَ ذلك فقد عَرَفْتني قبلَ أن أعرِفَ نفسي بمدةٍ طويلة ! »

– « حقاً ؟ .. لعلي أشرَفْتُ على عمليةِ مجيئك إلى هذا العالم .. هل لك أن تَذْكُرَ لي اسمَك ؟ »

ولمَّا عرَّفْتُهُ بنفسي رَحَّبَ بي وقال :

« لو أتيحَ لي أن أتأمَّلَكَ جيداً ، يا سيدي ، لأمكنَني أنْ أعرِفَكَ ، فأنتَ تُشْبِهُ والدَكَ إلى أبعدِ حدٍّ ! » ثم أضافَ بعد لحظةٍ : « إن شُهْرَتَكَ قد وَصَلَتْ إلينا ، يا سيدي ! »

وجلَسْتُ بجانبِهِ ورُحْنا نتحدَّثُ عن ذكرياتِ الماضي .



« آغنيس » ودايفيد في الحديقة

وقد نَقَلَ لي أحاديثَ زوجتِه التي تعرفُ الكثيرَ عن آل مردستون . فقد تزوّجَ عمي السيد مردستون زوجةً أخرى ، لديْها بعضُ المال . وكانت جميلةً مرحةً قبل الزواج ، ولكنّها تغيَّرَتْ تغيُّراً كاملاً بعدَهُ . فقد حدَثَتْ في بادىء الأمرِ خصوماتٌ ومشاحناتٌ كثيرةٌ بين الزوجةِ الشابةِ من ناحيةٍ وبين السيد مردستون وشقيقتِه من الناحيةِ الأخرى . ثم استكانتِ المرأةُ المسكينةُ ورَضَختْ . وبعدَ ذلكَ بدأتْ تتحوّلُ ؛ شيئاً فشيئاً ، إلى بلهاء .. والآن لم يَبْقَ منها سوى خيال . وكان من نتيجة ذلكَ أن ماتَتْ أمُّها حَسْرةً عليها .. وقال الدكتور تشيليب إنَّ الأخويْنِ مردستون لا يُسَوِّآن فقط حياة الآخرين ، بل إنهما يصيبانِ نفسَهما بذات السَّهم ، بما أخذا به نفسَيْهما من التزمُّت والتحجُّر . ولقد أبغَضَهما الناسُ وابتعدوا عنهما ، وكلما جافاهما أحدٌ صبّا عليه اللّعنات ، حتى أصبح عَدَدُ الملاعين ، في تلك الناحية ، يشكّلُ الغالبيةَ بين السكان .

وتذكَّرْنا يومَ مولدي ، فقال إنه ظلَّ ساعات ، في تلكَ الليلةِ ، حتى هدأتْ أعصابُهُ بعد الهجومِ التي شنَّتْهُ عليه « تلك المرأةُ المتوحّشَة » ، التي هي عمّي .

فضحكتُ وقلتُ له إنني ذاهبٌ في الصباح إلى « ذلك التنّينِ المرعب » الذي أخافَه ، وإنه لو عَرَفَ عمّي عن

كَتَبٍ لأدرك أنها من أطيبِ النساء قَلْباً وأرقِّهن شعوراً فما لبثَ أن طَلَب شَمْعَداناً وذهَبَ لينام !

في صباح اليومِ التالي ركبتُ العربةَ إلى دوفر ؛ فكان لدخولي في بَهْو المنزلِ فِعْلُ القنبلة . راحتْ عمّتي تقبِّلُني وتبكي ، وكذلكَ السيد ديك وعزيزتي بيغوتي التي أصبحَتْ تُدير منزلَ عمّتي . وسَهِرْنا معاً ، وأخبَرْتُ عمّتي بما حدثَ لي مع الدكتور تشيليب ؛ وروَيْتُ لها كيف أنه لا يزال مرعوباً منها ؛ فضحكتْ كثيراً هي وبيغوتي ؛ وتحدثنا طويلاً عن الشقيقينِ مردستون وأعاجيبِهما .

٢٥. حديث مع آغنيس

ظَلَلْنا أنا وعمّتي حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل . أطلَعَتْني على كافة الأخبار ؛ فروَتْ لي أن جانيت بعدَ أن عادت إلى خدمتها ، خَطَبَها صاحبُ معطمٍ غنيٌّ وتزوّجها . أما المهاجرون في أستراليا ، فإنهم لا يُرسلون خطاباً إلا ويَنِمُّ عن الرضا والآمال الواسعة . وقد أرسل السيد ميكوبر عدةَ مبالغَ صغيرةٍ من أصل الدَّين . ثم قالت عمّتي وهي تلاطفُ يدي :

« والآن ، يا تروت ، متى سنذهبُ إلى كنتربري ؟ »

قلت : « سأبحثُ عن حصان غداً وأتوجّهُ إلى هناك ، إلا إذا كنتِ تريدين أن ترافقيني . »

فقالت إنها ستبقى في المنزل . وبينما كانت تُلاطفُ يدي ، كنت أنظرُ إلى النار وأحلُم . نعم ، كنتُ أحلمُ بآغنيس التي عاملتني طولَ حياتها معاملةَ الأخت . ولكنْ إذا كانت آغنيس قد نظرَتْ إليَّ كأخ ، أفما كان من الممكن أن تكونَ بالنسبة إليّ غيرَ ذلك ؟ لقد كنتُ لا أرى أمامي في ذلك الوقت . ومرّتْ في خاطري تلميحاتُ عمّتي ؛ ولكنني كنتُ مُنساقاً مع الأهواء . ولَبِثْنا صامتَيْن بضعَ دقائق . ولما رفعتُ نظري رأيتُ عمّتي تتأمَّلُني ، كأنّها تقرأ أفكاري. قالت :

« ستجدُ السيد ويكفيلد وقد أبيضَّ شعرُهُ تماماً ، غير أنهُ أحسنُ حالاً بكثير من السابق ، سواء من الناحية الصحية أو النفسية ؛ وصار حُكْمُهُ على الأشياء مَنطقياً وصائباً .. أما « هي » ، فما زالت على عهدِكَ بها : جمالها ، رقتها ، تجرّدها.. كل ما فيها من محاسنَ لم يتبدل.. لو كنتُ أحسِنُ المديح بأبلغَ من هذا كما خشيْتُ أن أنسبَ إليها أنبلَ ما عُرِفَ من صفات ! »

في الواقع أن هذا أعظمُ إطراء لآغنيس ، وأشدُّ لوم لي ، أنا .

قلتُ وكأنني أحلم بصوت مرتفع :

« هل صادَفَتْ آغنيس مَنْ ... ؟ »

— « مَنْ ، ماذا ؟ »

— « مَنْ طَلَبَ يدَها ؟ »

فَرَدَّتْ بشيء من الاحتجاج :

« بالعشرات !.. كان في استطاعتها ، منذ رحيلكَ حتى الآن ، أن تتزوجَ عشرينَ مرةً ! »

— « بالطبع ، بالطبع .. ولكنْ هل صادفتِ الرجلَ الذي يستحقُّها ؟ لأن آغنيس لا تقبلُ بأيٍّ كان ! »

فصمتَتْ لحظة ، وهي تسندُ ذقنَها بيدها ، ثم رفعتْ عينيها وقالت :

« يبدو لي أنها متعلِّقةٌ بشخص معين ! »

— « وهل يبادلُها هذا الشخصُ عاطفةً بعاطفة ؟ »

— « لا أدري ! كما أن ما قلتُهُ لك لستُ واثقةً منه ، لأنها لم تُطْلِعْني قطُّ على شيء ! »

— « إذا كان هذا حقيقةً فلا بُدَّ أن تُطْلِعَني عليه آغنيس يوماً من الأيام لأنَّ الأختَ التي وَثِقَتْ بها كلَّ الثقةِ لا يُعْقَلُ ألاّ تثقَ بي . »

في اليوم التالي ركبتُ فرَساً وتوجهت إلى كنتربري . وعندما وصلْتُ إلى منزل السيد ويكفيلد رأيتُ أن الحجرةَ

المستديرةَ التي شَغَلَها أوريا هيب ثم ميكوبر ، قد أصبحَتْ حُجْرةً للاستقبال .. لم يَعُدْ هناك مكتبٌ بالطبع .. ولكنَّ الذي لم يتغيَّرْ هو النظافةُ والترتيب . قلتُ للخادمةِ الصغيرةِ التي فَتَحَتْ ليَ الباب :

« قولي للآنسة آغنيس إنَّ شخصاً ، من قِبَلِ صديقٍ سافَرَ إلى أوروبا ، يريدُ مقابلتها ! »

وقادتني الخادمةُ إلى البَهْو ، الذي لم يتغيَّرْ فيه شيء : الكتبُ التي كنت أطالعها أنا وآغنيس ما زالتْ في مكانها ، المكتبُ الذي طالما درسْتُ عليه ، ما زالَ في الرُّكن ... لم يَبْقَ أيُّ أثرٍ لجميع التغييراتِ التي كان قد أحدثَها أوريا هيب .

وقفتُ أمامَ إحدى النوافذِ أنظرُ إلى المنازلِ المقابلةِ التي طالما أطلَلْتُ اليها النظرَ من خلالِ الأمطار . ونبَّهَني صريرُ البابِ فالتفتَ فاذا آغنيس أمامي بوجهها الهادىء الجميل . فتوقفتْ وقد هزَّتْها المفاجأة . قلت :

« لقد أخطأتُ ، يا صديقتي آغنيس ، بمجيئي دونَ إخطار ! »

— « كلا ، كلا ! إنني سعيدةٌ برؤيتك ، يا تروتوود ! »

وفي صمت جلَسْنا جنباً إلى جنب ، ورُحْتُ أنظرُ إلى ذلك الوجه الملائكيّ وقد ارتسمتْ عليه الفرحةُ والمحبَّةُ

اللتان ظَلَلْتُ أحلمُ بهما الليلَ والنهارَ منذُ سنين . كنت أريدُ أن أقولَ لها أشياء كثيرةً أُعبِّرُ بها عن عواطفي نحوَها ، عن الفرح الذي يتغلغلُ في أعماقي منذُ أن أشرَقَ عليَّ وجهُها .. ولكنني لبثتُ صامتاً .. واستطاعتْ بهدوئها المحبَّب أن تسكِّن ما تولاّني من اضطراب . وراحت تتحدَّثُ عن الماضي وتلامسُ برفقٍ أوتارَ قلبي . قلت :

« تحدَّثي إليَّ عن نفسك ، يا آغنيس ! إنكِ لم تقولي كلمةً عما تفعلين ! »

— « وماذا تريدُني أن أقولَ لك ؟ إنَّ والدي بصحةٍ جيدة .. وها أنت تجدُنا هادئين في منزلنا القديم الذي عاد إلينا .. كلُّ ما كان يُقْلِقُنا قد تبدَّد .. كلُّ هذا تعرفه ، يا تروتوود .. إذن فأنت تعرفُ كل شيء ! »

— « هل هذا كلُّ شيء حقاً ؟ »

فنظرتْ إليَّ بدهش وانفعال . فعُدْتُ أقول :

« ألا يوجدُ أكثرُ من ذلك ، يا أختي ؟ »

فاصفرَّ وجهُها ثم أحمرَّ ، ومن ثَمَّ عاد إلى الاصفرار ، وهزَّتْ رأسَها ، وعلى ثغرها ابتسامةٌ حزينة .

لقد أرَدْتُ أن أدفعَها إلى التحدُّثِ عن الموضوع الذي أخبرَتْني به عمتي ، ولكني عندما رأيتُ انفعالها ، توقَّفْتُ عن ذلك .

وغيَّرْتُ الحديثَ فقلت :

« لا بدَّ أنك تتعبين كثيراً ؟ »

— « مع تلميذاتي ؟.. يا لَهُ من تعبٍ مُمتع ! »

— « إنك لا تتعبين أبداً من عمل الخير ! »

فعاد وجهُها يصفرّ وتبْرز فيه تلك الابتسامةُ الحزينة !

وقالت لي إن لديها عملاً ، فلأنتظِرْ والدَها في البَهْو ولأتَسلَّ بكُتبي القديمة والموسيقى التي كنا نسمعُها معاً . ودعَتْني إلى البقاء تلك الليلةَ فاعتذرتُ عن المبيت وقلتُ إني مستعدٌ لقضاء اليوم معهما .

وخرجتُ أتنزَّهُ في الشوارع . وقلتُ في نفسي إنَّ هذه العاطفةَ الأخويةَ يجب أن تظلَّ كما هي .. عليَّ أن أحافظَ عليها ، فإنْ تغيَّرَ معناها فُقِدَتْ إلى الأبد . وعلى هذا الأساس قرَّرْتُ ألاَّ أُعرِّضَها للزَّوال .

وعُدْتُ عند الغَداء فوجَدْتُ السيِّد ويكفيلد قد رَجَعَ إلى المنزل ، لقد اشترى بستاناً بالقرب من كنتربري ، وهو يعملُ فيه كلَّ يوم .

وتناولْنا الغَداء ومَعَنا خمسُ تلميذاتٍ لآغنيس . وبعدَ الغَداء صعَدْنا ، فراحت آغنيس تغنِّي هي وتلميذاتُها وتعزِفُ ، ثم تعكفُ معَهُنَّ على العمل . بعد ذلك ذهبتِ التلميذاتُ وبقينا نحن الثلاثة نتحادث . تحدَّثَ إليَّ السيد

ويكفيلد عن والدة آغنيس ، وكيف تعذَّبَتْ لأنَّ والدَها لم يَرْضَ عن زواجها ، ولم يَغْفِرْ لها ذلك ، وتُوُفِّيَتْ وهي كسيرةُ القلب. وكان عمرُ آغنيس وقتذاك ثمانيةَ عشَرَ يوماً. ثم وَصَفَ الحُبَّ الذي يحمله لابنتِهِ وحبَّها لَهُ وعنايتَها به ، ومزاياها التي نَدَرَ مثيلُها.

ثم عزَفَتْ آغنيس على البيانو لحناً كنّا نحبّه نحن الاثنان. وسألتني وأنا واقفٌ بجانبها :

« هل تفكّرُ في السفر مرةً أخرى ؟ »

— « وما هو رأي أختي ؟ »

— « أتمنى ألاّ تفعل ! »

— « وهو كذلك ! »

— « إن نجاح مؤلفاتك يجب أن يدفعكَ إلى البقــاء والعمل بجدّ ! »

— « إنّ ما نلتُه من نجاح كان بفضلِك ! »

— « وكيف يا تروتوود ؟ »

— « كنتُ أريد أن أقولَ لكِ اليومَ شيئاً ما زالَ يلازمُني منذ وفاة دورا ! أتذكرينَ أنكِ جئتِ إليّ يوماً في بَهْونا الصغير ، وأرَيْتِني السماء؟ لكَمْ خطَرَ لي هذا الموقفُ فيما تلا ذلكَ من الأيام ! لقد أرَيْتِني السماءَ دائماً ، ودائماً دَفَعْتِني إلى هدفٍ أسمى ».

بقيتُ في دوفر لأُتمّ كتابي ، الذي يستغرقُ انجازُهُ بضعةَ أشهر . وكنتُ خلالَ ذلك أذهَبُ أحياناً إلى لندن لأغْرَقَ في دوّامة المجتمع أو أرى ترادلز في قضيةٍ من القضايا ، لأنه كان يتولى هو إدارةَ ثروتي ، على خير الوجوه .

٢٦. زواج جديد

وجاء عيد الميلاد ، وكان قد مضى على عودتي أكثرُ من شهرين. وكنتُ أذهبُ مرةً ، على الأقلّ ، إلى كنتربري . كنت أجدُ لذةً في المديح يُعْلِنُهُ صوتُ الجُمْهُور المرتفع ، ولكنّ كلمةَ ثناء واحدة من آغنيس كانت تمنحُني أضعافَ ذلك من اللذة . وكنتُ أذهبُ على الفَرَس عند المساء ، فأقضي السهرةَ عندها ، ثم أعودُ ليلاً . وكنتُ أقرأ عليها صفحاتٍ من كتابي . فتغْرقُ في الضحك ، أو ترْسلُ الدموع . وكانت تندمجُ اندماجاً مع العالم المثاليّ الذي أعيشُ فيه ، فأتمنّى لو أنني تزوجتُ امرأةً تتجاوبُ مع أفكاري هذا التجاوب .

ولم نحاول أنا وعمّتي أن نتطرّقَ إلى هذا الحديث أثناء سهَراتنا ، كأنّ بيننا اتفاقاً ضمنياً على ذلك .

وذاتَ مساء . وكانتِ الثلوجُ قد سقَطَتْ وتحوّلَتْ

إلى جليد ، كنتُ أستعدُ للذّهاب إلى كنتربري . قالت عمّي وهي تفتحُ قليلاً بابَ حجرتي :

« أوَأنت ذاهب اليوم ؟ »

– « أجل ، يا عمّي ! إن الطقس رائعٌ لركوب الخيل ! »

– « أرجو أن يكون حصانُكَ من نفس الرأي .. فأنا أراه يَخفضُ أذنيه ، ولا ريبَ أنه يفضّل البقاء في إصطبله ! »

– « إنه سيستعيد قوّتَهُ . لا تخشَيْ شيئاً ! »

– « على أيّ حال فالنزهةُ ستُسْعِدُ صاحبَه ! »

وقلتُ لها وهي تجلسُ في مقعدي :

« هل تعرفين شيئاً جديداً عن موضوع آغنيس الذي كنتِ قد تحدثتِ إليّ عنه ، بخصوص تعَلّقِها بشخصٍ مجهول ؟ »

فأنعمَتْ فيّ النظرَ ثم قالت :

« أعتقدُ ذلك ، يا تروت ! »

– « وهل تأكّدَ ظنُّكِ الأول ؟ »

– « أعتقد ! »

ثم أضافت ، وهي تنظرُ في عينيّ :

« بل هناك أكثر من ذلك !.. »

– « مــاذا ؟ »

– « أعتقد أن آغنيس ستتزوج ! »

قلت بمرح : « ليبارِكْها الله ! »

– « وليبارِكْ زَوْجَها ! »

وفي نفس ذلك اليوم خَطَبْتُ آغنيس وتفاهمتُ معها . واتفقنا على أن أمضيَ الليلةَ في كنتربري ، وفي الصباح آخذُها لأقدّمَها إلى عمّي وأزفَّ إليها البُشرى .

بعد خمسةَ عشرَ يوماً تزوّجنا . وكانت حفلةُ الزواج مقتصرةً على الاهل وإلى جانبهم الدكتور سترونغ وزوجتُهُ وترادلز وصوفي .

ولما خلَوْنا إلى بعضنا قالت آغنيس :

« الآن وقد أصبحتَ زوجاً لي فإنّ عليَّ أن أعترِفَ لك بشيء كتمتُهُ طويلاً ! قلت : « ماذا يا حبيبتي ؟ »

– « إنها ذكرى من تلك الليلة التي تُوُفِّيَتْ فيها دورا .. أتذكرُ أنها طلبَتْ منكَ أن تأتيَ لتأخذَني إلى جانبها ؟ »

– « نعــم ! »

– « لقد قالت لي إنها تتركُ لي شيئاً .. أتدري ما هو ؟ »

إلى هنا أدركتُ ماكانت تريدُ أن تقولَ ومع ذلك سألتُها

« وما ذاك ؟ »

–« طلبتْ مني أن آتيَ يوماً لأحتلَّ المكان الذي ستتركُهُ فارغاً ! »

ثم انخرطتْ في البكاء ، ومزجتُ أنا بمدامعها مدامعي ، ومع هذا كنا سعيدين .

٢٧ . بداية النهاية

اتسعتْ شهرتي إلى حد بعيد ، وكبرتْ ثروتي ، وكانتِ السعادةُ ترفرفُ على منزلي العائليّ منذ ستٍّ سنوات . وذاتَ ليلة ربيعيةٍ كنا نجلسُ ، أنا وآغنيس ، بجانب النار ، بينما كان ثلاثةٌ من أبنائنا يلعبون حولنا . وبينا نحن كذلك قيل لي إن شخصاً غريباً يطلبُ مقابلتي . وقد سُئل إن كان آتياً لعمل ، فأجاب بأنه لم يأتِ إلاّ لزيارتي ؛ وهو رجل شيخٌ يبدو أنه مزارع .

فلما دخلَ وقفَ في الظلّ فلم أتبيَّنْهُ ؛ ولكن آغنيس ما لبثت أن صاحت : « إنه السيد بيغوتي ! »

كانت فرحتُنا به شديدةً . وقد أجلسْناه بيننا ، نحن الاثنين ، وجاء الأطفالُ يجلسونَ على رُكبتيه . ورحنا نسألُهُ عن أخبار المهاجرين ، فأخبرَنا بأن إميلي قد تعرَّضت لآلامٍ نفسيةٍ وأصيبت بخيبة أمل قبل الرحيل من انكلترا ، ولهذا فهي مضربةٌ عن الزواج . أما سام فقد غرق في البحر وهو يحاول إنقاذَ سفينة . وأما السيدة كاميدج ، فقد أضحكَتنا بقصّتها طويلاً . ذلك أنها في هذه السِّنّ وجدَتْ من يطلُبُ يدها . أي نعم .. والعاشقُ طبّاخٌ في سفينة .. ولكنَّ السيدة كاميدج بدلَ أن تجيبَهُ بالكلام ، أجابَتْهُ بدلو ماءٍ دلَقَتْهُ

على أمِّ رأسِه !

ولما سألتُهُ عن السيد ميكوبر ، الذي وفى دينَهُ حتى آخرِ قرشٍ ، قال وهو يُخرج من جيبِهِ رُزْمةً من أعداد إحدى الصحف ، إنَّهُ أصبحَ حاكماً لمدينة « بورت ميدلواي » ! ثم أراني مقالةً عن حفلةٍ أُقيمتْ تكريماً للحاكم الخطير ويلكنز ميكوبر ، وفيها إطراءٌ يفوقُ الوصفَ لهذا الرجل العظيم ، الذي يرفعُ رأس وطنِهِ الأمِّ في بلاد المَهْجر ، ووَصْفٌ للحفلة التي أشرف عليها الدكتور « مال » (معلمي في سالم ـ هاوس) صِهْرُ السيد ميكوبر والأستاذ بدار المعلمين . وقالت الصحيفةُ إنّ ويلكنز ميكوبر الابن غنّى بصوته « الذهبيّ » الرنّان ؛ وإنّ وُجُوهَ المدينة كانوا حضوراً ومنهم السيدة « ريدجر بغز » (الآنسة ميكوبر سابقاً) . ثم قالت إنّ الحاكمَ العظيم ، الذي يتمتّعُ بشعبية واسعة ، ارتجلَ خطاباً شاعرياً في غاية البلاغة .

وقد رأيتُ أن السّيد ميكوبر أهمُّ محررٍ في الجريدة وكانت الافتتاحية بقلمه . وقد وجّهَ إليّ تحية على صفحات الجريدة . وفي مكان آخر رأيتُ إعلاناً عن مجموعة رسائل من تأليف الحاكم ميكوبر ، صدرت منها الطبعةُ الثانية ...

ظلّ السيد بيغوتي عندنا شهراً كنّا كثيراً ما نتحدثُ فيه عن ميكوبر وزوجته . وقد جاءت عمّتي ومعها مُرَبّيتي

إلى لندن لتَرَياه . وفي نهاية الشهر كنّا في وداعه يومَ ركبَ السفينةَ عائداً إلى استراليا .

٢٨ . النهاية

والآن ، وقدِ انتهتْ قصتي . ألقي نظرةً إلى الوراء قبل أن أختمَ هذه الصفحات . إنني أمضي وبجانبي آغنيس ، مكمِّلاً رحلتي ، وإياها ، على طريق الحياة . أرى من حولي أولادي وأصدقائي ؛ وفي بعض الأحيان تَطْرُقُ أُذُني ، على هذه الطريق الطويلة ، أصواتُ أحبها وآنسُ إلى سماعها .

أمّا الوجوهُ الحبيبةُ إلى نفسي فها هي تتواردُ أمامي الواحد بعدَ الآخر . ها هي عمّتي الطيبةُ قد أرَبَتْ على الثمانين ، ولكنّها ما زالت منتصبةً كعُود الخَيْزُران . وبجانبها لا تزالُ مربّيتي العجوزُ الطيبةُ بيغوتي . إنها تجلسُ كلَّ مسا ،عادتِها ونسيجُها أمامَها وعلبةُ الخياطة . وعندما أرى ا؛ الصغيرَ يُمسك بإصبعها لينتقلَ بينها وبين عمّتي وهو ح ، أذكرُ بَهْوَنا الصغيرَ في بلندرستون ، أ. الإصبعَ التي قادَتْ أوْلى خُطُواتي .

ولقد استطاعت عمّتي أن تَطْمَئِنَّ أخيراً إلى وجودِ

مخلوقةٍ ، من لحمٍ ودمٍ ، باسم بتسي تروتوود : إنها ابنتي التي وُلِدَتْ حديثاً . وتَدَّعي ابنتي الأخرى « دورا » ، التي تأتي قبلَها مباشرةً ، أن عمّتي تدلِّلُ المولودةَ الصغيرةَ أكثر مما ينبغي !

وأرى هنا عجوزاً يقفُ بين أبنائي ويطيِّرُ لهم طيارةً صنَعَها بنفسه : إنه السيد ديك .

وها هو الدكتور سترونغ ، الرجلُ الطيِّب .. إنه ما زال يعملُ في قاموسه ، وقد وَصَلَ منه إلى الحرف (د) .. إنه سعيدٌ بين زوجتِهِ وقاموسه .

ثم هناكَ صديقي العزيزُ الوفيّ ترادلز ، الذي أصبحَ محامياً شهيراً .. ولكنّ صوفي تحلمُ بأن يصبحَ قاضياً . لقد انتقلَ إلى منزلٍ واسعٍ محترم ، وما زالَ منزلُهُ مزدحماً بشقيقات زوجتِهِ . وقد زادَ عليهنَّ أزواجهن ومن يلوذ بالأزواج .

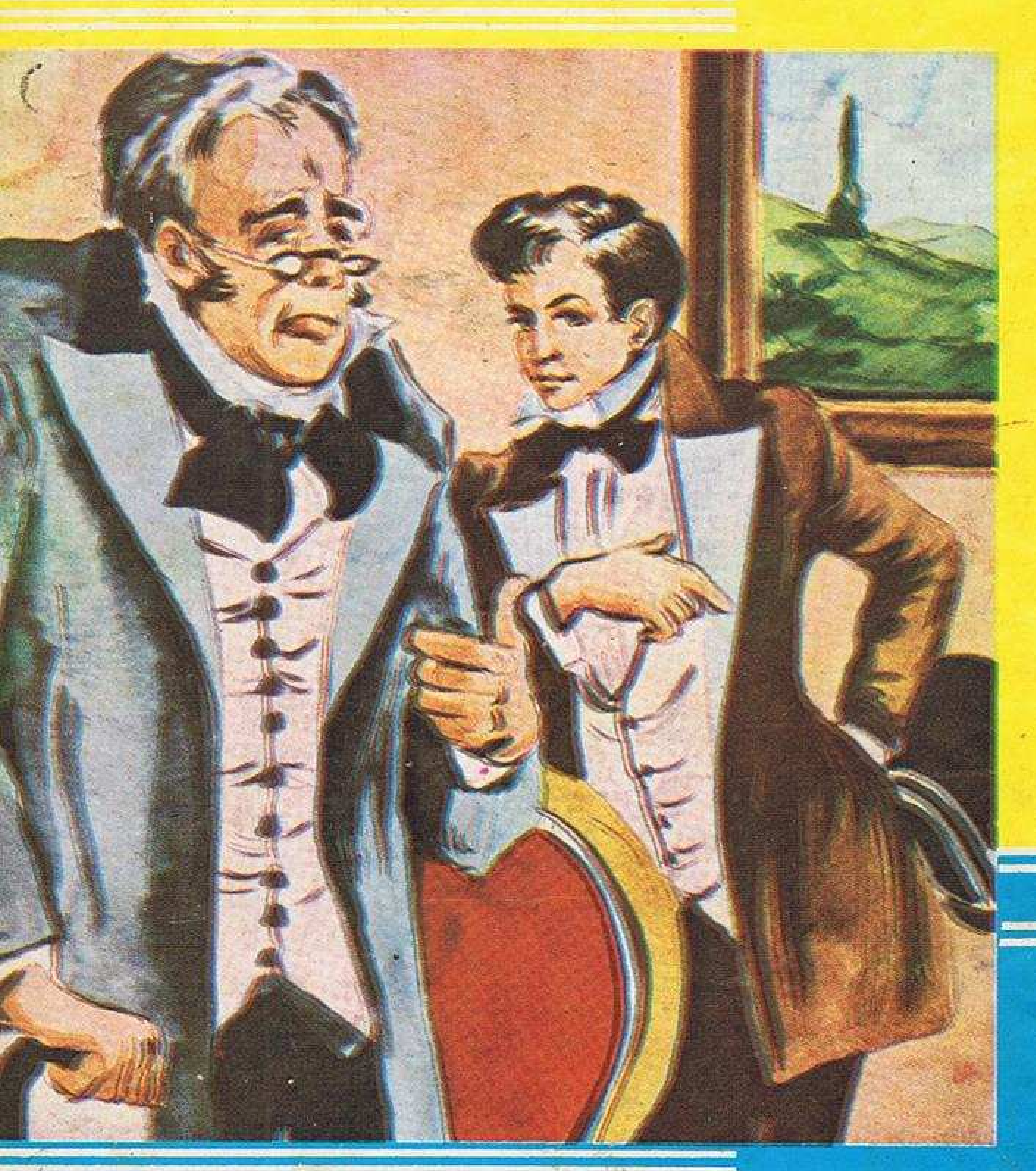
إنه لَيَصْعُبُ علي أن انتزعَ نفسي من بين هذه الذكريات . ولكنني مُرْغَمٌ على ذلك .. وهكذا تختفي جميعُ الوجوه ليبقى وَجْهٌ واحدٌ يتألّقُ فوقي كأنه نورٌ سماويّ : إنه وجه آغنيس . المصباح يوشك ان ينطفىء ، والليل قد أوغل حتى أشرفَ على نهايته ، والوجهُ الحبيبُ الطيّبُ ما زال إلى جانبي يؤنسُ وَحْدَتي ويملأ قلبي بالسَّلام .

انتهى

الفهرس

دايفيد كوبرفيلد

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت